عش لغيرك !

ماذا يكون حالك أيها الإنسان لو قيل لك من وجيهٍ أو غنيٍ أو ذي سلطانٍ : سل حاجتك ؟!

لا شك أنك ستظل تبحث عما تحتاجه أو يحتاجه أهلك وذويك من أمور الدنيا والمعاش؛ لتغتنم هذه الفرصة الذهبية التي لا تمنحها الحياة للكثيرين..لكن.. لماذا تفكر في نفسك دائماً ، ولا تفكر في الآخرين ؟ لماذا لا تكون كهؤلاء الذين يعيشون لغيرهم؟! لماذا لا تكون كعبد الله الذي تعرض هو وأخوه لاختبار معاوية رضي الله عنه؟ فكان ما كان من تباين الهمم واختلاف الغايات فكان هناك من يعيش لنفسه ، وكان هناك من يعيش للناس.!

(وفد على معاوية رضي الله عنه بدمشق، عبد الله وعبد الرحمن ولدا صفوان بن أمية ، ومع أن عبد الرحمن هو ابن أخت معاوية؛ إلا أنه قرب أخاه عبدالله دونه ، ولما أرسلت أخته (أم حبيبة بنت أبي سفيان) تعاتبه أن قرب البعيد؛ وبعد القريب ..كان رده عليها عملياً حين عقد لهما امتحاناً عسيراً ، لقد أذن لابن أخته القريب (عبد الرحمن) أن يدخل عليه ، ثم قال له : سل حوائجك؟

قال : فذكر دينا وعيالاً ..فأعطاه ..وقضى حوائجه.

فلما أذن لعبد الله وقال له سل حوائجك ؟ قال : تخرج العطاء ، وتقرض المدينين ، وترفد الأرامل القواعد ؛ وتتفقد أحلافك الأحابش! قال معاوية : أفعل ما قلت ..فهلم حوائجك! قال عبد الله : وأي حاجة في غير هذا ؛ أنا أغنى قريش!! ثم انصرف.

فقال معاوية لأخته : كيف رأيت؟!)[1]

لقد رأت حقاً أخوين بينهما بعد المشرقين،أما ابن أختها عبد الرحمن، فقد كان مهتماً بنفسه وأهله ، وأما عبد الله فهمومه على قدر همته ، همته المعلقة بالثريا ..بالمحتاجين والمدينين، والعجزة والمعوقين وكان صمتها عندئذ أبلغ من الكلام.

حينما تكون نفوسنا محبة للخلق، شاعرة بآلامهم، فإنها تتمنى لو أتيح لها جبالاً من الخير لتدفع به فاقة الناس وعوزهم ..وهذا التمني يحبه الله ، وقد يثيب صاحبه بما لو كان قد تحقق فعلا في الواقع، فالله تعالى يعظم النية ويثيب عليها ..انظر لهذا الأثر وكيف مدح الله هذا المتمني وأثابه على قدر ما تمنى ..إنه لم يفعل شيئاً سوى أن دار بخياله حب الخير للناس؟!

(روي أن رجلاً من بني إسرائيل مر بكثبان رمل في أيام مجاعةٍ أصابت قومه ، فقال في نفسه : لو كان هذا الرمل طعاماً ..لقسمته بين الناس حتى يشبعوا !، فأوحي الله تعالى إلى نبيهم أن قل لفلان : إن الله قد قبل صدقتك ، وشكر لك حسن نيتك ، وأعطاك ثواب ما لو كان هذا الرمل طعاماً فتصدقت به!)[2] وهكذا كان الجزاء.. على الصفاء..

يقول صلى الله عليه وسلم : (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها) رواه البخاري وغيره

---

[1] الإصابة في تمييز الصحابة-لابن حجر العسقلاني

[2] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - علي بن سلطان محمد القاري

لا أعرف من أقوال الدنيا قولاً يغرس التفاؤل في النفوس ، كما يفعل هذا الحديث الشريف لرسولنا ﷺ، ولنا أن نتساءل في تأمله.. متى تُثمر هذه الفسيلة ، وقد توقف الزمن وقامت القيامة؟!
ومن ذا الذي سيأكل منها؛ وقد فنيت الدنيا ، والناس إما إلى جنة أو إلى نار ؟!
والجواب: لا أحد..لكن الرسول ﷺ، يريد أن يربي فينا قلوباً تبذر الخير دون انتظار الأجر، إلا من الله سبحانه ، بل دون أن نرى ثمرتها وخيرها.. وقد قال أحد المتأملين: لاحظوا أن هذه الفسيلة المزروعة، والتي ضُرب بها المثل.. لا تُثمر إلا بعد تسع سنوات فأكثر.! إن هذه الروح الإيجابية العظيمة ، وهذه النفس البارة الخيّرة ؛ ورثّها الرسول ﷺ قلوب أصحابه، فلقد روي أن رجلاً مر على أبي الدرداء ﷺ، وهو يزرع (جوزة) فقال : أتزرع هذا وأنت شيخ كبير؟! وهذه لا تطعم إلا في كذا وكذا عاماً! فقال أبو الدرداء : ما عليّ أن يكون لي أجرها ، ويأكل منها غيري.
ولله در القائل : (عش لنفسك تحيا قليلاً..عش لغيرك لن تموت أبداً)
نعم.. تعيش وتبقى حياً في قلوب الناس بأعمالك وبرك وحبك للآخرين ، ومهما طال الزمن وامتد ستظل حياً بما تركت من آثار أسعدت بها الفقراء والمكروبين.. ومن جميل ما ذكره المفسرون في تفسير قصة الغلامين اليتيمين اللذين أنقذهما الله بالخضر عليه السلام وذكر السبب بأنه (وكان أبوهما صالحاً، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك..) (الكهف:٨٢) ، وأن هذا الأب الصالح ليس هو أبوهما المباشر، بل كان سابع جد! وصلاح هذا الجد البعيد وصلت آثاره إلى أحفاد الأحفاد.!
وهنا يصور عبقري البيان بلغته العزبة وأدبه الفريد، كيف تطول حياتك لو عشت لغيرك ؟ وكيف تقصر بأيامها ولو كانت طويلة حينما تعيش أنانياً لذاتك ولا تبصر غيرها ؟! فيقول:
(عندما نعيش لذواتنا فحسب تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة ، تبدأ من حيث بدأنا .. وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود ! أما عندما نعيش لغيرنا ، فإن الحياة تبدو طويلة عميقة ، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية ، وتمتد بعد مفارقتها لوجه الأرض..إننا نربح أضعاف عمرنا الفردي في هذه الحالة ، فتصور الحياة على هذا النحو ، يضاعف شعورنا بأيامنا وساعاتنا ولحظاتنا ، وليس الحياة بعدد السنين، ولكنها بعدد المشاعر)[١]
إن العيش من أجل الآخرين والحرص على تقديم الخير والنفع لهم ..يدلل بوضوح على معاني الإنسانية السامية ، والنبل الرفيع، الذي يسمو بمقام صاحبه عن الحيوان الذي يسمن نفسه ولا يرعوي بغيره..!
إن الأمم لا تسمو ولا تهفو إلى الرقي، إلا حينما يكرم فيها الإنسان، وتحترم آدميته، وتقرر له حقوقه واحتياجاته ، ولا تتسابق الأديان والأفكار في جودتها وصلاحيتها إلا بقدر ما تقدمه للإنسان من خير ورخاء ، وبقدر ما تقرر من احترامه وتقديره..! والبشرية عبر تاريخها الطويل لم تعرف دينا كالإسلام ، أعلي من كرامة البشر،

---

[١] أفراح الروح- سيد قطب

وأنصف الفقراء والمظلومين ، ونادي بالعدالة والمساواة كما فعل الإسلام ، ولم العجب فهو الدين الوحيد الذي قاتل من أجل الفقراء؟!

يقول (القرضاوي) في إحدى ندواته: (إن الأديان السماوية كلها، بل و الوضعية أيضاً، دعت إلى الإحسان إلى الفقير.. ولم يصل دين من الأديان إلى ما وصل إليه الإسلام من الاهتمام بالفقراء والمساكين، حيث اعتبر أخذهم من مال الأغنياء حق، بل حق معلوم (وفي أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم) (الذاريات:١٩)، ولهذا جيَّش الصدِّيق الجيوش وبعث الجنود لقتال مانعي الزكاة وقال قولته الشهيرة: "والله لو منعوني عقالاً لقاتلتهم عليه).

وخاطب أمير الشعراء نبينا ﷺ بقوله:

جاءت فوحدت الزكاة سبيله ** حتى التقى الكرماء والبخلاء

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ** فالكل في حق الحياة سواء

إن إدراك حقوق الغير من صميم الإسلام ، وإهدارها جريمة لا تقبلها الضمائر الحية ، والنفوس الراقية..وخليق أن تنهض أجيالنا على هذه الأفكار ، ليصير مجتمعنا إنسانيا بمعنى الكلمة ،تتراحم أطيافه وتتعاطف فئاته فيما بينها..وكم كان طريفاً أن يحمل طالب في المرحلة الثانوية هموم الناس ويفكر في المحرومين منهم؟! حينما صاغ مادته الإنشائية على غير ما يرغب أستاذه ومعلمه، وهو ما حدث للدكتور (عبد الوهاب المسيري) رحمه الله حيث قال في رحلته الفكرية :

(أذكر ذات مرة أن أستاذ اللغة العربية الأستاذ (عوف) طلب مني وأنا في الثانية من المرحلة الثانوية ، أن أكتب موضوع إنشاء تحت عنوان (حديقة منزلكم) والإنشاء لم تكن مادة نتعلم فيها كيف نرتب أفكارنا ونحولها إلى كلمات مكتوبة وبنية منطقية متماسكة، وإنما كانت قوالب لفظية جاهزة نحفظها عن ظهر قلب ، ثم نرصها رصاً حين تحين المناسبة ، ومن هذه القوالب التي مازلت أذكرها مجموعة من الكلمات تعبر عن موقفي من الطبيعة : فهي تخلب اللب، وتشرح الصدر ، وتملأ القلب روعة وجلالاً ، وبالطبع كانت هناك الآيات القرآنية والأبيات الشعرية والأمثلة التي نرصع بها ما نكتب أو ما نُنشيء ..ضقت ذرعاً بكل هذا فكتبت موضوع إنشاء أقول فيه ما أحس به..وبدأ الموضوع بتأكيد أن منازل الفقراء ليس بها حديقة ، وأن أطفالهم لا يعرفون معنى الحدائق ويعيشون بين أكوام القمامة ، وهاجمت الظلم الاجتماعي بشكل عام، فأعطاني الأستاذ صفراً على هذا الموضوع، وأبلغ أهلي عن كتاباتي الشيوعية ، وبطبيعة الحال لم تكن لها أي علاقة بالشيوعية التي لم أكن أعرف عنها شيئاً آنذاك، أو أي مذهب سياسي ، وإنما كانت تعبيراً عن رفض فتى يافع للظلم الاجتماعي الواقع على أعضاء المجتمع.) [1]

ثم تأمل معي أيها القاريء حينما يحتضر كثير من الناس وتحين لحظة فراقهم للدنيا وداع الأهل والأبناء..إنهم يغترفون من متع الدنيا قدر ما استطاعوا قبل رحيلهم الأبدي ..! ثم يحصنون أبناءهم بالدور والقصور ، ويوصونهم بما يحميهم من عوادي الزمن وأحداثه، وهذا كائن ومعلوم فيمن ملكت الدنيا قلوبهم وعقولهم ..أما أهل الله..فإنهم كانوا على خلاف ذلك حين أدركتهم هذه اللحظات الحرجة ..فلم ينشغلوا

---

[1] رحلتي الفكرية - د.عبد الوهاب المسيري

بأنفسهم أو يهتموا بمن خلفهم من الأهل والأبناء والذرية بقدر ما انشغلوا بأمر الناس، كيف يستطيعون في هذه الأوقات الضيقة السريعة أن يقدموا لهم خدمة أو يسدوا لهم معروفاً وخيراً ؟!..فهذا إمام المسلمين (أبو حنيفة)ﷺ يعطينا المثل والقدوة في هذا.. تأمل كيف كان حرصه على خير الناس، وهو في الرمق الأخير من حياته.؟!

يحكى تلميذه (أبو يوسف) فيقول: كان (أبو حنيفة) يحتضر، فطلب ورقة وقلماً ليحل مسألة وقال: (لو بقى من العمر لحظة، لوددت أن أفعل فيها شيئاً ينفع المسلمين أقابل به ربى)

حتى الذين يؤذونه ويؤرقونه.. كان يقدم لهم الخير ويسعى لنجدتهم إذا مسهم الأذى ، فقد كان له جار يشرب الخمر ويغرد بصوته كل يوم :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ** ليوم كريهة وسداد ثغر

كان الإمام ينزعج من جلبته ، ثم افتقده في يوم من الأيام ولم يسمع به ، فسأل عنه فعلم أن الشرطة أخذته ، فذهب إليه وشفع له عند الأمير ليخلي سبيله ، فقال الأمير : وكل من أُخذ في تلك الليلة إكراماً لأبي حنيفة.! فلما خرج الفتى قال له الإمام : أأضعناك يا فتى ؟ وعوضه بمال عن أيام حبسه، فتاب الفتى ، وأخذ يتردد على مجلس أبي حنيفة حتى تفقه..

تأمل ماذا صنع الإمام الفقيه من الفتى المذنب شارب الخمر؟! لقد حببه في العلم والدين وارتياد المساجد حتى صار فقيهاً متديناً، ولو كان هناك أناس في مكان الإمام الكبير لقالوا: الحمد لله الذي أراحنا منه وعاقبه بذنبه ، فبئس الجار هو، ولربما كسر عليه أحدهم بابه، وانتزع منه الخمر وأراقها على رأسه، ونعته بالفسق والفجور، لكن الإمام لم يفعل شيئاً من هذا ، لأنه كان فقيه دعوة ، قبل أن يكون فقيهاً في المسائل.!

يقول (الغزالي) في إحيائه:

(ينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك وأهم من حاجتك ، وأن تكون متفقدًا لأوقات الحاجة ، غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة ، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها، ولا ترى لنفسك حقًّا بسبب قيامك بها ، تتقلد منه بقبول سعيك في حقه وقيامك بأمره ، ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة ، بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد)

لقد كان هذا حال السلف الصالح وإيمانهم وقناعتهم.. يحبون خدمة الناس ، ويفنون أوقاتهم وأموالهم وقوتهم في مساعدتهم وقضاء مصالحهم وحوائجهم،لقد كان ذلك العطاء أحب إليهم من الدنيا وما فيها ..!

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (ثلاثة لا أجازيهم أبداً ..رجل بدأني بالسلام ، ورجل وسع لي في المجلس، ورجل اغبرت قدماه في المشي إلى إرادة التسليم علي، فأما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله، قيل: ومن هو؟ قال: رجل نزل به أمر.. فبات ليلته يفكر بمن ينزله ثم رآني أهلا لحاجته فأنزلها بي) [1]

---

[1] المجالسة وجواهر العلم للدينوري

بل كانوا يعتبرون من يعرض عن قضاء الحاجات وخدمة الناس من الأموات، وقد قال أحدهم: (إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها..فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي، فإذا لم يقضها.. فكبر عليه واقرأ هذه الآية: (والموتى يبعثهم الله) (الأنعام:٣٦)
(وقضى (ابن شبرمة) حاجة لبعض إخوانه فجاءه بهدية فقال: ما هذا؟ قال لما أسديته إليّ فقال: خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها.. فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده من الموتى.)[١]
ويقول (جعفر بن محمد) : (إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني . هذا في الأعداء..فكيف في الأصدقاء ؟!)
وكان (أبو عثمان) شيخ الإمام (البخاري) يقول: (ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي، فإن تم وإلا قمت له بمالي، فإن تم وإلا استعنا له بالإخوان، فإن تم وإلا استعنت له بالسلطان)[٢]
وكذلك كان (الليث بن سعد) إمام مصر.. حينما كان يجلس للمسائل فيغشاه الناس يسألونه، فيجلس لحوائجهم ولا يرد من سأله منهم.. كبرت حاجته أو صغرت..
وكان (الحسن) إذا فقد الجليس من إخوانه..أتى منزله، فإن كان غائباً وصل أهله وعياله، وإن كان شاهداً سأله عن أمره وحاله، ثم دعا بعض ولده من الأصاغر فأعطاهم الدراهم ووهبها لهم وقال: أبا فلان، إن الصبيان يفرحون بهذا..كما لقي مرة أخا له.. فلما أراد أن يفارقه خلع عمامته فألبسه إياها وقال: إذا أتيت أهلك فبعها واستخدم ثمنها.
وقال مجاهد: صحبت (ابن عمر) أريد أن أخدمه فكان هو الذي يخدمني.
روى (الخطيب) عن (عبد الله بن الخطيب) : (أن الطيب إسماعيل أبا حمدون من القراء المشهورين كانت له صحيفة مكتوب فيها ٢٠٠ من أصدقائه، فكان يدعو لهم كل ليلة فتركهم ونام ، فقيل له في نومه: لم لم تسرج مصابيحك الليلة ؟ فقعد فأسرع وأخذ الصحيفة فدعا لهم واحداً واحداً حتى فرغ.!)
وإذا أردت طريقاً من طرق الجنة.. فكن مثل هذا الرجل الذي صحب جماعة من المسلمين في الجهاد في سبيل الله، وكان شرطه عليهم أن يخدمهم.. فإذا أراد أحد منهم أن يغسل رأسه أو ثوبه قال: (هذا من شرطي فيفعله، فمات فلما جردوه للغسل، رأوا على يده مكتوباً: (من أهل الجنة)! فنظروا فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم.!)[٣]
وكان أحدهم يضر نفسه ليحمي غيره، يجلب لنفسه الخسارة في تجارته وماله حتى لا تصيب أحداً من المسلمين، وهو ما فعله (أبو عبد الله الخياط) (الذي كان يجلس في حانوته (دكانه)، وكان له (حريف) -زبون- مجوسي يعامله في الخياطة..فكان إذا خاط له شيئاً حمل إليه المجوسي دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذها منه، ولا يُخبره بذلك، ولا يردها إليه.. فحدث يوماً أن أبا عبد الله ترك الحانوت وقام لبعض حاجته، فأتى المجوسي، فلم يجده، فدفع إليه غلامه الجرة، وأخذ ما قد خيط له، وكانت الأجرة درهماً زائفاً ..فلما نظر الغلام.. عرف أنه زائف فرده إليه، فلما عاد أبو عبد الله أخبره الغلام بما حدث فقال أبو عبد الله: بئس ما فعلت..! إن هذا

---

[١] إحياء علوم الدين – أبي حامد الغزالي
[٢] علو الهمة - المقدم
[٣] من أدب الأخوة - عبد الرحمن العقل- مجلة البيان

المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة، وأنا أصبر عليه، وآخذ الدراهم منه، وألقيها في البئر؛ لئلا يغش بها مسلماً آخر..)
وإذا كانت السنة طويلة في فعل (أبي عبد الله الخياط) ، فقد قرأت نبأ تلميذ صيني بالمرحلة الثانوية ظل ثلاث سنوات بالتمام والكمال ، وهو يتحمل مسؤولية ضمان ألا يتغيب صديقه (زهانغ) المعاق جسديا عن أي حصة، وكان (زيوزو) (١٨ عاما) قد التقى زميل دراسته (زهانغ) تشي (١٩ عاما) عندما التحقا بمدرسة ثانوية في مدينة (زوزهاو) بشمالي الصين..ويعاني (زهانغ) من داء نقص التغذية العضلية الذي يوهن العضلات الهيكلية ، مما جعله عاجزا عن المشي تماما، ومن ثم ..قرر (زيو) حمل صديقه على ظهره حتى لا يفوته أي درس، وظل يفعل ذلك طوال ثلاث سنوات بلا انقطاع، ويعيش الصديقان في السكن الداخلي المجاور للمدرسة، ويقوم (زيوزو) يومياً بحمل (زهانغ) من غرفته إلى المدرسة ويعيده إليها في نهاية اليوم الدراسي، ويساعده في الحصول على وجبات الطعام وغسل ملابسه، ويقول (زيوزو) : إنه يحمل صديقه هنا وهناك بين الحصص ، ويتجول به في المدرسة ، وينتقل به بين المدرسة والسكن عدة مرات في اليوم الواحد. !
ربما تقدم الخير في يوم أو يومين أو موقف أو موقفين ..لكنك هل تستطيع أن تثابر عليه بالسنين كما فعل هذا التلميذ الصيني الذي بذل من وقته وصحته لصديقه المعاق؟! إنه عمل لا يقوى عليه إلا من وجد السعادة فيه ، ولا يثابر عليه إلا من عرف أن يعيش في الدنيا.. لا لنفسه وإنما لغيره.!

السعادة الحقيقية

يضج العالم اليوم بكثير من المآسي والآهات ، ويعاني الإنسان فيه صنوفاً من الشقاء والعناء، ولا يكاد المرء منا يتتبع أحوال العالم هنا أوهناك، حتى يرى النوازل والمصائب في كل مكان تفتك بالبشر فتفني أجيالهم وتزهق أرواحهم ..ومع ما وصل إليه العلم الحديث من صور التقدم العلمي والتطور العقلي ..إلا أنه لم يستطع أن ينهض بأخلاقه ويطور من قيمه..مع هذا التقدم العظيم الذي كان من المفروض أن يسعى لخير الإنسان وراحة البشر..لم يجد الإنسان معه إلا كل عناء وشقاء وعذاب أليم.. لقد كان أبي رحمه الله أديباً مطبوعاً، وكان له مقال رشيق يذكر فيه هذا المعنى، ويطالب الإنسانية أن تثور على واقعها وأخطائها..فتحت عنوان (التكنولوجيا والآلام) قال أبي رحمه الله الأستاذ (إبراهيم سلامة):
(ارتقى العلم فوسع ما ضاق من أفق الإنسان ، به صعد إلى السماء وبز الكواكب في أجوائها ، وغاص في أعماق البحار والمحيطات وبين أمواجها، داعب الحيتان ولاعبها في مراقدها ، ومن بطن الأرض أخرج ما خبأته في أحشائها ملايين السنين، وأصبح يرى بالمجهر والتلسكوب وغيرهما على نحو ما رأت الزرقاء في الزمن القديم وأبعد ، وأغراه هذا السيل الجارف من المخترعات أن يستنبت إنسانا سماه طفل الأنابيب مثلما صنع شبيها له وسماه الإنسان الآلي ، وانبهر بكل هذا حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى من قول الله سبحانه : (وظن أهلها أنهم قادرون عليها..)

وإن لك البر والبحر والجو يا صاح..فهل استطعت بهذا التقدم الخرافي بالتكنولوجيا أن تجد علاجاً لأمراض النفوس؟! وتنزع من أعماقها جذور الشر المليئة بالحقد والجشع والخسة والنذالة والكراهية؟! وترفع الظلم الذي تضج منه الأرض وتنزف الأسى والدماء؟!..هل تستطيع أن تقدم التكنولوجيا لآلام البشرية فتشفي ملايين المرضى وتشبع عشرات الملايين من الجياع وتنصف المستضعفين الذين يستصرخون فيك إنسانية الإنسان...أليس من العار ومن أحط درجات التخلف أن تظل الحروب تدمر وتشوه كل ما خلقه الله الذي جعل دستور الناس في الحياة : (إنا خلقناكم من ذكر وأنسى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ..) (الحجرات :١٣) ويصدق فينا قول الملائكة : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء..)؟! (البقرة:٣٠)

أيها الإنسان أنت في قمة تفوقك غارقٌ في هوة عجزك، فهل تستطيع أن تحيي ميتاً أو تشفي مجزوما أو مريضاً بالإيدز؟!هؤلاء البشر.. يومٌ يصعد بهم الغرور في سماء الظنون والأباطيل والأوهام، ويومٌ آخر يسقهم للإعتراف بالعجز والمذلة ..مساكين يستحقون الرثاء.!)

رحمك الله يا أبي..فما أرشق قلمك! .. وما أبلغ مدادك!..وما أجمل تأملك في هذا الإنسان الحائر الذي تهرب السعادة من بين يديه وهو قادر عليها..!

لقد قرر حكماء النفوس أن خير طريق لقهر الهموم والنجاة من جحيم أشباحها ..أن نتعامل معها بحكمة ونقوم بترويضها ، حتى ينصرف عنا بلاؤها تماماً كما كان البحارة يفعلون في عاداتهم حين يلتقون بحوت كبير في البحر فقد كانوا يلقون إليه بقارب صغير فارغ لينشغل بمهاجمته عن مهاجمة السفينة الأصلية حتى لا يغرقها.. ثم يحاولون خلال انشغاله بملاطمة القارب الفارغ – صيده- أو النجاة بسفينتهم بعيداً عنه ..وكذلك ينبغي أن نفعل نحن أيضاً مع حوت أحزاننا وهمومنا لكيلا يلتهمنا ويقضي علينا، أن نشغله عنا.. بالاندماج في العمل والحياة الاجتماعية والمجاملات الإنسانية والعمل لراحة الآخرين..

وأرى أن خير سبيل لإزالة الهموم هو استدعاء الهموم! ولعل المعنى غريباً بعض الشيء ، أو يستحق بعض التوضيح والبيان!، فأقصد أن نستجلب هموم الآخرين ونعايشهم ونشاركهم آلامهم وأحزانهم ووجدانهم ..ساعتها وكطريقة مجربة ..لن يكون هناك مكان لهمومنا وهي تذوب في هموم الآخرين..!

وهو سر السعادة الذي تبينه السعداء القدامى والفاقهون في معاني السرور من أمتنا..

قال ابن المنكدر: (لم يبق من سعادة الدنيا.. إلا قضاء حوائج الإخوان)

وقيل له: أي الأعمال أفضل؟ قال: (إدخال السرور على المؤمن)

وقال الحسن: لأن أقضى حاجة لأخ أحب إلى من أن اعتكف سنة..!)[١]

وكان ابن عباس يقول: (صاحب المعروف لا يقع، فإن وقع وجد متكأً..!)[٢]

ومنه قول الرسول ﷺ: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء)

---

(١) المجالسة وجواهر العلم للدينوري

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة (١ /٣٣٩)

ولقد عرِف (حسن البنا) رحمه الله طريق السعادة الحقيقية وأرشد إخوانه وعموم المسلمين إلى هذا الطريق الذي تَبَينه منذ صباه ومنذ أن كان طالباً بدار العلوم فوضحت غايته، وعرف طريقه، ونذر نفسه للناس، وخير الناس، وإرشاد الناس..!
بيّن ذلك كله في موضوع الإنشاء الذي طلب منه أن يكتبه في امتحان التخرج من دار العلوم ..وكان موضوعه: (اشرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك، وبين الوسائل التي تعدها لتحقيقها).
فأجاب بقوله: (أعتقد أن خير النفوس.. تلك النفس الطيبة التي ترى سعادتها في إسعاد الناس وإرشادهم، وتستمد سرورها من إدخال السرور عليهم، وذود المكروه عنهم، وتعد التضحية في سبيل الإصلاح العام ربحاً وغنيمة، والجهاد في الحق والهداية – على توعر طريقهما، وما فيه من مصاعب ومتاعب –راحة ولذة، وتنفذ إلى أعماق القلوب فتشعر بأدوائها، وتتغلغل في مظاهر المجتمع، فتتعرف ما يعكر على الناس صفاء عيشهم ومسرة حياتهم، وما يزيد في هذا الصفاء، ويضاعف تلك المسرة، لا يحدوها إلى ذلك إلا شعور بالرحمة لبنى الإنسان، وعطف عليهم، ورغبة شريفة في خيرهم، فتحاول أن تبرئ هذه القلوب المريضة وتشرح تلك الصدور الحرجة، وتمر هاته النفوس المنقبضة، لا تحسب ساعة أسعد من تلك التي تنقذ فيها مخلوقاً من هوة الشقاء الأبدي أو المادي، وترشده إلى طريق الاستقامة والسعادة.
وأعتقد أن العمل الذي لا يعدو نفعه صاحبه، ولا تتجاوز فائدته عامله، قاصر ضئيل، وخير الأعمال وأجلها ذلك الذي يتمتع بنتائجه العامل وغيره، من أسرته وأمته وبنى جنسه، وبقدر شمول هذا النفع يكون جلاله وخطره، وعلى هذه العقيدة سلكت سبيل المعلمين، لأني أراه ساطعا يستنير به الجمع الكثير ويجرى في هذا الجم الغفير، وإن كان كنور الشمعة التى تضئ للناس باحتراقها) [(١)]
هذا ما وعاه (حسن البنا) في صدر شبابه ويفاعته المبكرة ، فلما كبر ظلت الغاية هي الغاية والفكرة هي الفكرة والإيمان هو الإيمان ، ولم يكن هناك من فرق إلا أن الإيمان بها أصبح أشد وأقوى ، فكان حب الناس هو الغاية التي يوجه إليها الناس ، وكان التفاني في خدمتهم هي الدعوة التي يوجه إليها أصحابه فكان يقول لهم:
هل أنتم مستعدون أن تجوعوا حتى يشبع الناس ..؟!
وأن تسهروا حتى ينام الناس .. ؟!
وأن تتعبوا حتى يستريح الناس..؟!
و أخيراً أن تموتوا كي يحيا الناس ..!"
وكان يقول: كونوا كالشجر يرميه الناس بالحجارة فيرميهم بالثمر..!!
إن الدراسات الحديثة أظهرت أن طيبة الإنسان في التعامل مع الآخرين يمكن أن تكون سببا لسلامته النفسية والبدنية، بل يمكن أن تطيل عمره وأيامه، ففعل الخير يكون له أثر على المنظومة العصبية التي تتحرك بموجبها آليات الدماغ، فحين نبيح لأنفسنا فعل الخير للآخرين ، فإننا نفتح في الحقيقة سبلا عصبية تنعش مشاعر الرضا في النفس، فيتدفق هرمون (الأندورفينز) ليرفع من أداء الناقلات العصبية التي يحتاجها التفكير الذكي،وأظهرت كذلك أنّ الناس الذين يميلون بانتظام إلى إسداء

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية- للإمام حسن البنا

فعل الخير والطيبة للآخرين، معرضون لاحتمال الموت بنسبة أقل ممن لا يفعلون الخير، وذلك على امتداد فترة لا تقل عن خمسة أعوام مقبلة، واحدة من أكثر المسائل إثارة في هذا البحث، هي أنّ من وقع عليهم فعل الخير، لم يتحسن أداؤهم العمري أسوة بفاعلي الخير، وهكذا انحصرت فائدة الطيبة على هذا المستوى بفاعلها دون المتلقي لها.!

فعل الخير يجعلك أكثر سعادة .. إن لم تدفعك كل الأسباب أعلاه لبذل الخير والطيبة مع العالم وكائناته ، فهذا العامل يمكن أن يحثك على الطيبة وهو: (فعل الخير في الحقيقة يجعلك أكثر سعادة)، و كشفت دراسة أخرى صدرت عن جامعة (بنسلفانيا) عن (أثر رسالة شكر كُتبت باليد وسُلمت شخصيا إلى إنسان لم يشكره أحد قط لأفعاله الخيّرة، الدراسة كشفت أنّ من أقدموا على هذا العمل ظهرت عليهم آثار سعادة مفاجئة مفرطة استمرت معهم لمدة شهر.

خلاصة القول: إن فعل الخير مفيد لنا كما هو مفيد لمن يقع عليهم، وهو عادة يمكن تطويرها في أيّ مكان وزمان دون أن تكلف شيئا أو بكلفة زهيدة لا تذكر.)[١]

كما أجريت بعض الأبحاث العلمية على عدد كبير من المرضى قبل وبعض مشاركتهم في الأعمال التطوعية الخيرية التي أقيمت لمساعدة الآخرين بالخدمات أو بالمال ، وكانت النتيجة مفاجأة كبيرة فإن كثير من أولائك المرضى تحسنت أحوالهم الصحية بصورة إيجابية وملحوظة.. حتى أنهم لمسوا هذا التحسن بأنفسهم وصرح بعضهم أنه لم يشعر بهذه السعادة من قبل، وعلى إثر ذلك صدر تقرير طبي يدعم هذه النتيجة علمياً حيث كتب الطبيب : (إن النفس البشرية تشعر بسعادة كبيرة عند تقديم المساعدة للآخرين حيث يفرز الدماغ مادة (الدوبامين) التي تؤدي إلى الإحساس بنشوة المساعدين وهي حالة نفسية منعشة يشعر بها الإنسان العادي وتساعد المريض على الشفاء.)

وهذه السعادة والنشوة الغامرة التي لفت إليها التقرير جعلها ديننا من صميم تعاليمه وأراد لأتباعه أن يعيشوها ويلمسوها في حياتهم الاجتماعية ، حيث يقول ﷺ:

(ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يقضيها ثبت الله قدميه يوم تزول الأقدام) البيهقي وابن ماجة

وقال أيضاً: (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ، ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ، ما كان العبد في عون أخيه ..) رواه مسلم

ويواصل العلم الحديث دوره في تأكيده للحقيقة التي نوه بها ديننا ..فقد توصلت دراسة لبعض العلماء إلى بعض العوامل القادرة على حل معضلة السعادة، وإظهار العناصر التي تولد الفرح لدى الإنسان ، فبعد متابعة ردود أفعال الأمهات على شريط فيديو بث على برنامج (أوبرا) التلفزيوني وجدوا أن التواصل والتعاطف بين البشر يقوي من هرمون (الأوكسيتوسين) ويُفعِل من آثار العصب الرئوي المعدي المحفزين للسعادة ، والذي يفرز أثناء الاجتماع واللقاء مع الأحبة، كما أنه مرتبط بحالات الشعور بالثقة

---

[١] في تقرير منشور بمركز dw الإعلامي

والوفاء ، ولاحظت الدراسة أن عملية التطوع لخدمة الآخرين من شأنها أن ترفع من معنويات البشر، وتشعرهم بنوع من الرضا الشخصي عن ذاتهم، بحيث تشتد هذه الظاهرة وقت الأزمات.
وإذا كانت السعادة في خدمة الآخرين أكيدة وموفورة إلى هذا الحد ، وبتأكيد العلم والدين، فلماذا لا نجعل حياتنا كلها سعيدة هانئة ؟! لماذا لا نشحن أيامنا كلها بوقود السعادة فلا نقضي ليلاً أو نهاراً إلا ويكون لخدمة الآخرين فيه نصيب كبير..؟! هناك أقوام كانوا لا يعدون من أعمارهم إلا تلك الأوقات التي عاينوا فيها الفرحة والسعادة، فهي وحدها أعمارهم أما ما دونها فلا ينتسب إليهم ..!
وما أروعخيال الأدباء حينما نسج أحدهم قصة لمهاجر عربي هاجر إلى أمريكا الجنوبية في القرن العشرين فاحتفل به أقاربه الذين سبقوه إلى المهجر وطافوا به شوارع المدينة التي يعيشون فيها فقادتهم أقدامهم إلى مقابرها ، وأعجب المهاجر الجديد بجمال المقبرة وشواهدها الرخامية الثمينة ، لكنه لاحظ خطأ شائعاً في بياناتها جميعاً فكل شاهد منها يحمل عبارة من هذا النوع : فلان الفلاني ولد عام ١٨٦٠ ومات عام ١٩٣٠ وعمره عشرون سنة! ، أو : فلان الفلاني ولد عام ١٨٧٠ ومات في عام ١٩٤٠م وعمره خمسون عاماً ! وهكذا ..!فلفت أنظار أقاربه إلى هذه الأخطاء في حساب الأعمار فضحكوا منه وقالوا له: إنه لا خطأ هناك.. لأن الناس في هذه المدينة لا يقدرون عمر الإنسان بما عاشه من سنوات من مولده إلى رحيله ، وإنما بما عاشه من لحظات السعادة، وهكذا فقد يكون عمر الإنسان مثلاً ٧٠ عاماً لكنه لم يعش فعلا سوى عشرين سنة ، وقد يكون عمر آخر ٦٠ عاماً لكنه عاش ٥٠ سنة من السعادة ، فيكون أطول عمراً من الأول بحساب السعادة وليس بحساب السنين، وأعجب المهاجر الجديد بالفكرة وكان في الأربعين من عمره، فتأملها طويلاً ثم تنهد بأسى بالغ وقال لرفاقه : إذا مت اليوم أو غداً فأرجو أن تكتبوا على قبري هذه العبارة : جبر من بطن أمه إلى القبر ..! أي أنه لم يعش يوماً واحداً سعيداً منذ ولد..وكأنه يردد مقولة أحدهم : (لو كانت الدنيا تقاس بلحظات السعادة فاكتبوا على قبري :مات قبل أن يولد)
ويوجه (سلامة موسى) نداءه للشباب ويرشدهم إلى طريق السعادة ومعناها الحقيقي فيقول:
(كثير من الذين لا يتعمقون في معرفة الدنيا وفهمها يظنون أن السعادة في الملذات والشهوات ، ولكننا لا نطلب هذه السعادة لأنها في صميمها حيوانية، لأن سعادة الرجل الناضج هي كفاح إنساني يغمر شخصيته ،ويبعثه على النشاط، ويربطه بالمجتمع، ويجعله يحس بأنه عضو نافع..وهناك أنواع كثيرة من هذا الكفاح فإن الشاب الذي يدرس علمًا أو فنًّا هو مكافح، وكذلك الذي يدرس السياسة وينتهي إلى برنامج للإصلاح هو أيضًا مكافح، وكلا هذين يجد أن العمر قصير في هذا الكفاح؛ ولذلك لا يمكن أحدهما أن يسأم أو ينحرف أو أن يسقط.
ولكن هناك أيضًا ميادين أصغر، فإن الانتماء إلى جمعية خيرية لتربية اليتامى أو مساعدة الأرامل أو تعليم العميان يملأ القلب كرامة والعقل تفكيرًا ويكبر الشخصية، إن الواقع أن الإنسان أكبر من ذاته، أو هو لا يكبر إلا إذا تجاوز ذاته ونزع من الأثرة

إلى الإيثار؛ أي خرج من نطاق الأنانية الفردية إلى نطاق الغيرة الاجتماعية. وهذا هو الذي يجعلنا نعجب بالفدائيين، ونعجب بالشجاعة والشهامة، لأن هاتين الفصيلتين تعنيان الإقدام والتضحية بالذات في سبيل غير اللذات، أي تعنيان الإيثار. وليست الأمومة في جمالها سوى هذا الإيثار الذي يشع منها حين تجوع الأم كي تشبع طفلها، وليس الحب في روعته سوى هذا الإيثار الذي يؤثر به كل من المحبين الآخر، وليست الجندية سوى إيثار الشعب ـ شعبنا الذي ننتمي إليه والذي هو أسرتنا الكبرى ـ على أشخاصنا، ولن نحس السعادة الداخلية العميقة إلا حينئذ نؤثر على أنفسنا. يجب على كل شاب أن يؤثر على نفسه ، يؤثر الوطن أو الإنسانية أو الشرف أو الخير .
وذلك بأن يخدم ويتعب لغيره ، فيحاول أن يرفع ظلماً أو يصل إلى هدف شريف، أو يحقق برنامجاً سياسياً أو اجتماعياً يعتقد سداده ، أو يعول يتيماً أو يكافح استعماراً أو يتصدى لاستبداد ، وهكذا الخدمة الإيثارية ..هي التي تكسبنا السعادة وتجعلنا نحس القيم الروحية العليا التي نحيا بها على المستوى الرفيع، والشاب الذي يحس هذه القيم يحس أيضاً كرامة شخصية ترفعه عن الدنيا وتحمله على أن يلتزم الفضائل السامية ، وعندئذ تستحيل هذه الخدمة الإيثارية خدمة ذاتية ، أي أن الشاب ينفع نفسه حين ينفع غيره ؛ذلك أننا نرتفع ونعظم حين نأخذ بالدفاع والعمل في شأن اجتماعي عظيم) [١]

الشعور بالآخرين

غرقت قوارب المهاجرين في البحر الأبيض المتوسط فقررت امرأة مسنة من شمال إيطاليا أن تنتقل من منزلها في إحدى الضواحي لتفسح المجال لهؤلاء اللاجئين حتى يقيموا فيه، لأنها تأثرت بغرق قواربهم وتشردهم تأثراً كبيراً..
وذكرت صحيفة (كورييري ديل فينيتو): إن (مارا جامباتو) والتي تبلغ من العمر ٩٠ عاماً تصرفت هكذا بعد علمها بالحادث الذي وقع في ١٨ أبريل والذي يفترض أن ٨٠٠ مهاجر لقوا حتفهم فيه، وغادرت العجوز مسكنها السابق في (روبانو)، على مشارف (بادوا)، وانتقلت إلى شقة أخرى تمتلكها في وسط المدينة، تاركة المسكن لجمعية خيرية، ليتم استخدامه لاستضافة ١٠ من طالبي اللجوء من غامبيا وغينيا بيساو، وقال (سيرجيو فينتورا) وهو أحد أقارب المرأة، للصحيفة : عندما سمعت في التلفزيون عن هؤلاء الأشخاص الـ ٨٠٠ الذين لقوا حتفهم في البحر، وعندما شاهدت عجز الدولة والمؤسسات العامة، قررت أن تفعل شيئاً.
إن المرأة تبلغ من العمر أرذله، وهو أقوى باعث لها على أن تتخلى عن روح التطوع والقيام بدورها المجتمعي والإنساني بحجة أنها طاعنة في السن وتحتاج من يرعاها ويقدم لها المساعدة..لكنها لم تفعل ذلك، وإنما بادرت بهذا العمل الرائع؛ لأن شعلة الإنسانية والشعور بالآخرين المحتاجين كانت متقدة في صدرها..!
أما المسلم..فلا يعقل له أن ينزل البلاء بالمؤمنين حوله فيقابلهم بقلب فاتر وعاطفة باردة ..! ولا يعقل أن تنزل المصائب بهم فيقف متبلداً مجردا من الحس والشعور..ومن كان كذلك فهو لا شك ليس ممن وصفهم الرسول ﷺ بقوله : (إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس) صحيح رواه أحمد

---

[١] مشاعل على الطريق للشباب- سلامة موسى

وقال أيضاً : (المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) رواه البخاري ومسلم
هذه هي صورة المؤمنين ..يرحم بعضهم بعضاً ويشعر بعضهم بآلام بعض..
لقد قال الله تعالى عنهم :(ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)(البلد:١٧)
قال الطبري : أي مرحمة الناس.
إن الحياة اليوم في كثير من المجتمعات استطاعت أن تجعل من الإنسان أنانياً لا يفكر إلا في ذاته ، ومهما ضج الناس حوله بالآلام والآهات، فإنه لا يرعوي لآلامهم ، وهذا هو الخسران المبين ، والانسلاخ من قيم الدين ، وقد قال ﷺ:(لا تنزع الرحمة إلا من شقي)..فما أكثر الأشقياء اليوم..!
والمبتلى إذا لم يجد من يواسيه ويسانده ،فإن المصاب يأكله ،والهم يقضي عليه، وكلما كنت قريباً من الناس كلما كان الله قريبا منك ، وكلما زدت في نفعهم كلما أحبك الله، وكلما زدت في برهم كلما زاد حبه لك.. ولا يعقل أن تطيع الله تعالى وتتقرب إليه، وقلبك جاف تجاه خلقه، لا شأن لك بهم ولا علاقة لك بهمومهم، تعيش في عزلة عن مصائبهم، وتنأى بجانبك عنهم ، وهو ما تأمله الشيخ (علي الطنطاوي) رحمه الله في نفسه يوماً فقال : (نظرت البارحة فإذا الغرفة دافئة والنار موقدة ، وأنا على أريكة مريحة ، أفكر في موضوع أكتب فيه ، والمصباح إلى جانبي ، والهاتف قريب مني ، والأولاد يكتبون ، وأمهم تعالج صوفا تحيكه ، وقد أكلنا وشربنا ، والراديو يهمس بصوت خافت ، وكل شيء هادئ ، وليس ما أشكو منه أو أطلب زيادة عليه .
فقلت: الحمد لله ، أخرجتها من قرارة قلبي ، ثم فكرت فرأيت أن (الحمد) ليس كلمة تقال باللسان ولو رددها اللسان ألف مرة ، ولكن الحمد على النعم أن تفيض منها على المحتاج إليها ، حمد الغني أن يعطي الفقراء ، وحمد القوي أن يساعد الضعفاء ، وحمد الصحيح أن يعاون المرضى ، وحمد الحاكم أن يعدل في المحكومين ، فهل أكون حامدا لله على هذه النعم إذا كنت أنا وأولادي في شبع ودفء وجاري وأولاده في الجوع والبرد ؟، وإذا كان جاري لم يسألني أفلا يجب علي أنا أن أسأل عنه ؟)[1]
وما أروع هذا المثل الرحيم حينما جاء رجلٌ إلى بيت صاحبه فدق عليه بابه فالتقاه وقال: ما جاء بك في هذه الساعة؟ فقال: عليّ أربعمائة درهم هي دينٌ، فوزن له الأربعمائة وأخرجها إليه، ودخل بيته يبكي، فرأته امرأته فقالت: لَمَ أعطيته إذ شق عليك العطاء؟ ظنت أنه يبكي متحسراً لأنه دفع إليه هذه الأربعمائة، فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي، أبكي لأني اضطررته إلى أن يسأل.!
لقد أراد الرسول ﷺ لأمته أن تكون أمة شاعرة رحيمة حساسة ، يتراحم أفرادها بعضهم على بعض، ويشفق الكبير منهم على الصغير ، ويعطف الغني على الفقير ، ويرحم القوي الضعيف ، ويشعر السليم المعافي بالمريض العاني ..وكان يدعو قلوب المؤمنين أن تتجمل بالرحمة، وتخفض الجناح لكل مسكين عذبته الحاجة وأضناه الفقر، حيث قال:
(لا يرحم الله من لا يرحم الناس) أخرجه مسلم

---
[1] من مقال للشيخ علي الطنطاوي نشر بمجلة الإذاعة سنة ١٩٥٦ م

وقال: (لا تنزع الرحمة إلا من شقي) رواه الترمذي وغيره
في المسند وصحيح الحاكم عن النبي ﷺ قال : (أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله عز وجل)
هكذا تبوء هذه القرية أو البقعة أو المنطقة أو البلد بالخسران والضياع حينما يصبح فيهم هذا الجائع المسكين الذي لم يجد من يشعر به ويأسى لحاله ويشاركه محنته ، لقد برئت منهم ذمة الله ورسوله حينما تركوه صريع الجوع يشتهي ولو كسرة من خبز يقيم بها صلبه ، ويُطفيء بها جوفه المستعر..وهذا مصير كل أمة تجردت من المشاعر والإحساس تجاه ضعفائها وفقرائها ، وياله من مصير مفجع مشؤوم.!
وكان (جعفر بن أبي طالب) ﷺ يلقب بأبي المساكين لشدة رأفته بالمساكين وإطعامه لهم..و كانت أم المؤمنين (زينب بنت جحش) تلقب بأم المساكين لإيثارها ومواساتها..وجاءت أم درة إلى السيدة عائشة رضي الله عنها بمائة ألف ففرقتها وهي يومئذ صائمة، فقالت لها: أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحمًا تفطرين عليه!! فقالت عائشة: لو كنت ذكرتني لفعلت.
ومن عجائب الآثار ما ذكره (القرطبي) رحمه الله عن (العدوي) قوله : (انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي -ومعي شيء من الماء- وأنا برجل يقول: آه! آه! فأشار إلي ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم. فسمع آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن انطلق، فجئته فإذا هو قد مات، عدت إلى هشام فإذا هو قد مات، فعدت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات..!)
وأهدي لرجل مِن أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إنَّ أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منَّا، فبعث به إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأوَّل.!
ولا يظن الإنسان أن ما يُعطيه لإخوانه يذهب هدراً ، ولكن الله تعالى يخلفه له وينميه في الدنيا قبل أن يجازى عليه في الآخرة ، وهذا مثل واقعي لرجل من المحسنين كان يؤثر المساكين المحتاجين على نفسه وأولاده، شعوراً منه بآلامهم وضيقهم..نسوق هذا المثل حتى نتعلم جميعاً أن الله تعالى لا يترك الخلق هملاً ..فهو تعالى يعوض الباذلين والمنفقين ، ولا يترك المحسنين دون أن يكافئهم في الدنيا والآخرة..!
إنها قصة الشيخ (سليم المسوتي) رحمه الله، وقد كان شيخاً كبيراً ، وكان على فقره (لا يرد سائلا قط، ولطالما لبس الجبة أو (الفروة) التي خلعها يوما ودفعها إلى رجل مسكين رآه يرتجف من البرد وعاد إلى البيت بالإزار، وطالما أخذ السفرة من أمام عياله فأعطاها للسائل، وكان يوما في رمضان وقد وضعت المائدة انتظاراً للمدفع، فجاء سائل يقسم أنه وعياله بلا طعام،فابتغى الشيخ غفلة من امرأته وفتح له فأعطاه الطعام كله!!، فلما رأت ذلك امرأته ولولت عليه وصاحت وأقسمت أنها لا تقعد عنده، وهو ساكت ..فلم تمر نصف ساعة حتى قرع الباب وجاء من يحمل الأطباق فيها ألوان الطعام والحلوى والفاكهة، فسألوا: ما الخبر؟، وإذا الخبر أن (سعيد باشا شموين) كان قد دعا بعض الكبار فاعتذروا، فغضب وحلف ألا يأكل أحد من الطعام وأمر بحمله كله إلى دار الشيخ (سليم المسوتي)، فقال لزوجته: أرأيت يا امرأة؟) [1]

---

[1] من حديث النفس للشيخ علي الطنطاوي

وفرق كبير بين زوجة الشيخ (سليم المسوتي) وزوجة (أبي الدحداح) وذلك لأنها الصحابية ، وأنها القدوة، وأنها التي لا مست نور النبوة وشاهدت من أرسله الله رحمة للعالمين، فلقد سمع زوجها من الرسول ﷺ وهو يتلو قول الله تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) (آل عمران:٩٢) فذهب على إثره ولم يكن يملك إلا مزرعته التي كانت آهلة بالنخيل، وارفة الظلال، عذبة الماء ، وبينما زوجته وأطفاله في المزرعة، فيقول لزوجته :اخرجي أنت وأطفالك فقد أنفقت هذه المزرعة في سبيل الله ..! فتقول المرأة الصالحة: بخ بخ ! أبشر بالرباح يا أبا الدحداح ، وتأتي بالرطب فتخرجها من أفواه أطفالها ، فيقول لها أطفالها : مالك يا أماه تخرجين الرطب من أفواهنا ؟ فتقول لهم: إن أباكم قد أنفق هذه في سبيل الله وإن الرطب أصبح في سبيل الله.!

وفي (وحي القلم) الذي صنفه أديب الإسلام (مصطفي صادق الرافعي) قصة بليغة تذكرنا بإنسانية أسلافنا العظام ، وما كانوا عليه من إيثار ورحمة وشعور بالآخرين، فقد (أعطى الشيخ (عبد اللطيف البغدادي) درسًا في مدينة (بلخ) في العراق، وقال للحضور: سأروي لكم قصة رؤيا رأيتها في ذات يوم. يقول الشيخ: في ذات مرةٍ اشتدَّ الفقر بي ولم أجد طعامًا في بيتي، وكان بكاء طفلي وجوع زوجتي يؤلمني، حتى كأني جائع بثلاثةِ بطونٍ خاوية، وفكرتُ أن أبيع داري، فانطلقتُ فقابلني (أبو نصر الصياد) فقال لي: إلى أين أنت ذاهب؟، فحكيت له حكايتي وعزمي على بيع بيتي، فقال لي (أبو نصر الصياد): خذْ هذه الحلوى (بركة الشيخ) وأطعمها لعيالك، فقلت له وما بركة الشيخ؟ قال لي أبو نصر الصياد: لقد خرجت من بيتي بعد الظهر وليس في بيتي طعام، فقابلني الشيخ (بشر الحافي) فسألني: ما أخرجك في هذا الوقت؟ قلت الحاجة، فقال لي هاتِ شبكتك وتعالَ معي، فأخذتُ الشبكة وذهبنا إلى النهر فأمرني بالوضوء والصلاة، ثم قال لي: ارمِ شبكتك وظلَّ هو يصلي، وبعد برهة من الزمن وجدتُ الشبكةَ قد ثقلت، فحاولتُ جذبها فلم أستطع، فاستغثتُ بالشيخ فخرجت سمكة عظيمة، فأخرجناها معًا ثم قال لي :خذها وانتفع بثمنها، فأخذتها وبعتها واشتريتُ لأولادي طعامًا وشرابًا.. وبينما أنا في فرحتي مع أهلي تذكرتُ الشيخ وفضله عليَّ ،فقلتُ: لأهدينه قطعةً من الحلوى، وذهبتُ إليه وطرقتُ عليه الباب فلمَّا أدخلني قلت له: يا فضيلة الشيخ.. تذكرتُ فضلك عليَّ فجئتك بهذه الحلوى هديةً لك، فقال لي الشيخ: خذ الحلوى؛ فلو أطعمنا أنفسنا هذه ما خرجت السمكة.

فأخذ (عبد اللطيف البغدادي) الحلوى من (أبي نصر الصياد) وانطلق عائدًا إلى بيته، فبينما هو عائدٌ قابلته امرأة ومعها طفلٌ صغيرٌ فقالت المرأة: يا شيخ.. أطعم ابني هذا شيئًا؛ فإنه يتيم وجائع.

يقول (عبد اللطيف البغدادي): فأنستني نظراتُ اليتم في عيني الولد.. زوجتي وابني فأعطيتُه الحلوى ورأيتُ الفرحَ في وجه الطفل ودموع الفرح في عينِ أمه، وأسعدني هذا وشغلني عمن في داري، وذهبتُ إلى شاطئ النهر أتدبر حالي وأُفكِّر في أمري، وبعد قليلٍ من الزمن جاءني (أبو نصر الصياد) وهو في فرحٍ شديدٍ وقال لي: أبشرْ يا عبد اللطيف أبشر ، فقد امتلأ بيتك خيرًا، قلت: كيف؟ قال: لقد ذهبتُ لأستدين لك، وبينما أنا ذاهبٌ إلى بيتك قابلني رجل يسأل عن أبيك فقلت له: لِمَ؟ قال: لقد أعطاه

أبوك مالاً منذ ثلاثين عامًا، وجاء الرجل ليسد أصل المال وربحه وهدايا كثيرة فدللته على بيتك.

يقول (عبد اللطيف البغدادي): فقلتُ: يا سبحان الله.. إن أبي مات منذ عشر سنوات، وهو كان مغمورًا في حياته ،فكيف بعد مماته، ولولا أن قابل التاجر أبا نصر الصياد لما وصل إلى داري، ورجعتُ إلى داري فوجدتها قد مُلئت خيرًا، ووجدتُ خيرًا ومالاً كثيرًا، وتذكرتُ أم اليتيم وطفلها، فأقسمتُ أن أكفلها طيلةَ حياتي، وتذكرتُ الفقراء والمساكين فكنتُ أتصدق عليهم وأُحسن لهم.

وفي ذات يوم رأيتُ في المنام وكأنَّ القيامةَ قد قامت، وأنه قد نُصب الميزان ووضعت سيئاتي في كفة وحسناتي في كفةٍ أخرى ،فوجدتُ سيئاتي وكأنها جبال تهامة، وحسناتي وكأنها لفافة قطن، وطاش الميزان وثقلت كفة السيئات، حتى أيقنتُ أني هلكتُ ونادى منادٍ: هاتوا بحسناته؛ فما من حسنةٍ يضعونها إلا ووراءها شهوة خفيفة أو حب لظهور أو استشراف مدح ، فلا تكاد تُثقل الميزان، ثم قال قائلٌ: أولم يبقَ له من حسنةٍ؟!.

قال آخر: بلى.. حسنة قطعة الحلوى للطفل اليتيم ، فجاءوا بها فأخذ أبو نصر الصياد نصف ثوابها، ولكنها ثقَّلت الميزان، ولكن لا تزال كفة السيئات راجحة فأيقنتُ أني هلكت، فقال قائل: أوليس له من حسنةٍ؟ قال آخر: بلى.. دموع الفرحة في عيني أم اليتيم، فجاءوا بها فوضعوها في كفة الميزان ففارت الدموع ثم فارت ثم نزلت على الأرض فصارت لجةً- أي بحر صغير- ثم خرجت منها سمكة عظيمة ثقَّلت ميزانَ الحسنات، فاستيقظتُ وأنا أصيح: "لو أطعمنا أنفسنا ما خرجت السمكة).

لقد هامت نفسي في هذه القصة المؤثرة وأعجبني فيها كيف كان أسلافنا أصحاب قلوب حية نبيلة ، استطاعت أن تبلغ بهم لأعلى مراتب الإنسانية .. رأيت في هذه القصة المؤثرة كيف عوض الله تعالى هذا المحسن الكريم، الذي آثر اليتيم وأمه الأرملة على زوجته وطفله الذي يبكي في البيت من خواء بطنه.. وتعلمت منها أن الله تعالى يكافيء المحسن بما لا قبل له به، وأن الإنسان حينما يترك شيئا لله فإن الله تعالى يعوضه بأكثر مما ترك ، لأنه الكبير الكريم.

أحب الناس إلى الله

سأل سائل رسول الله ﷺ فقال: (يارسول الله أي الناس أحب إلى الله فقال ﷺ له: أنفع الناس للناس)

وقالأيضا: (الخلق كلهم عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله) رواه الطبراني

ومعنى عيال الله حسب قول الشراح أي فقراء الله ..فالخلق كلهم فقراء إلى الله ، وهو الذي يعولهم وقيل: هو كلام على المجاز والتوسع، كأن الله لما كان المتضمن بأرزاق العباد والكافل بهم .!

وقد قيل:

الخلق كلهم عيال الله تحت ظلاله ** فأحبهم طرا إليه أبرهم لعياله

وقيل:

وخير عباد الله أنفعهم لهم **رواه من الأصحاب كل فقيه
وإن إله العرش جل جلاله **يعين الفتى ما دام عون أخيه

ومما ينسب للشافعي رحمه الله:

الناس بالناس مــادام الحيــاء بهــم
والسـعد لا شـك تــارات وهبـات
وأفضل الناس ما بين الورى رجـل
تقضى على يـده للنـاس حـاجـات
لا تمنعن يـد المعـروف عـن أحـد
مــا دمـت مقتدرا فالسـعد تـارات
واشكر فضائل صنع الله إذا جعلت
إليك لا لك عنـد النـاس حـاجـات
قـد مـات قـوم وما ماتت مكــارمهم
وعاش قـوم وهـم فـى الناس أموات

وقال ابن القيم رحمه الله في كتاب (الروح):
(والخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله وإذا كان سبحانه يحب من ينفع عياله بشربة ماء ومذة لبن وكسرة خبز فكيف بمن ينفعهم في حال ضعفهم وفقرهم وانقطاع أعمالهم؟)

وهذا النفع الذي تسديه للناس لا يقتصر على النفع المادي فقط، ولكنه يمتد ليشمل النفع بالعلم، والنفع بالرأي، والنفع بالنصيحة، والنفع بالمشورة، والنفع بالجاه، والنفع بالسلطان، ونحو ذلك، فكل ما استطعت أن تنفع به إخوانك المسلمين فنفعتهم به، فأنت ضمن من يحبهم الله تعالى.

وأي غاية في الدنيا يبتغيها العبد بعد حب الله له ؟!

إنها المنزلة التي ما بعدها منزلة..بل إنها الدرجة الرفيعة التي أشار إليها حبيبنا ﷺ فقال : (إن الله تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل فقال: يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)

وقال : (والله لا يلقى حبيبه في النار)

ويالها من منظومة تتبع بعضها بعضاً ، فإذا نفعت الناس أحبك الله ، وإذا أحبك الله أحبك أهل السماء ووضع لك القبول في الأرض، وإذا أحبك الله لا يعذبك أبداً..وكثيرا ما كان الصحابة يدفعهم ذكاؤهم أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله تعالى ، فكان رسول الله ﷺ يدلهم على الطريق ويقول لسائلهم : (أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم) أخرجه الطبراني

وتذكر معي كيف فرح الصحابة رضوان الله عليهم حينما صدرت التوبة الإلهية على الثلاثة الذين خلفوا وأسرع الصحابة يبشرونهم بالفرج وانكشاف الكرب ، وهم أحدهم بكل قوته ليبشر كعباً بعفو الله عنم وصدره يمتلىء حبا وفرحا و سرورا ، حتى إنه لم ينتظر حتى يصل إليه، وبدأ ينادي من بعيد بأعلى صوته من على الجبل : يا كعب بن مالك أبشر...يقول كعب : وكان الصوت أسرع من الفرس ،فخررت ساجدا وعرفت أنه قد جاء فرج ، ولما أعلنت التوبة في المسجد جاء الناس يبشرونه وصاحبيه..

وقال له ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : (أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك) ..فانظر إلى ذلك البشر والسرور الذي غمر النبي ﷺ وصحابته بعد علمهم بالخبر ..!

وقال ﷺ: (من مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام) [١]

أي ثبت الله قدمه يوم القيامة على الصراط، الذي هو مدحضة مزلة، أرق من الشعر، وأحد من السيف، وعلى جنبتيه كلاليب وخطاطيف، تتخطف الناس.

وله عن أنس ﷺ قال: (مَن لَقِيَ أخاهُ المُسلِمَ بِما يُحِبّ لِيَسُرَّهُ بِذلك ، سَرّهُ اللّهُ عزّ وجَلّ يومَ القِيامةِ)

وإذا كان السرور الذي تدخله على المسلم من أحب الأعمال إلى الله تعالى ، فاحذر من نقيضه حينما تكون مصدر إزعاج وشر وهم وغم للمسلمين ..اجتهد أن تفرح كل القلوب حولك ..تفرحهم ولو بالكلمة.. ولو بالبسمة.. كن عونا لهم حتى يكون الله في عونك، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: (من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة).

يالله ..النجاة من كرب الآخرة وهولها أصبح طريقاً سهلا ميسوراً ؟!..هذا الهول الذي يعيش الإنسان كل حياته وهو يعمل له ألف حساب ويتوخاه ويحاذره ..!! هذا الهول الذي وصفه الله تعالى بقوله : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) الحج:١-٢

وقال تعالى: (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به كان وعده مفعولا) المزمل:١٧-١٨

رغم كل هذا.. ومع كل هذا.. يخبرنا رسول الله ﷺ بالطريقة السهلة الميسورة في التحسب من هذا اليوم العصيب والتحصن مما فيه من هول وبلاء..

وجاء (علي بن أبي طالب) ﷺ وهو باب مدينة العلم ليفسر قوله تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) التحريم:٦ فقال: (عَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمُ الْخَيْرَ)[٢]

وحينما يريد العبد من الله تعالى أن يعينه ويكون في حاجته ، فما عليه كذلك إلا أن يتجه إلى حاجات الناس فيقضي منها ما استطاع ، حتى يقضي الله أمره ..وهو الذي أشار إليه الرسول الكريم في قوله :

(إن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[٣]

وقال: (إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه)[٤] أي فأعطوه

فعلى العاقل أن يستعين على قضاء حاجة نفسه، بقضاء حوائج المسلمين، فإنه من سعى فيها سعى الله في حاجته، فأيهما خير لك إذن ..أن تسعى في حاجة نفسك أنت، أم يسعى الله تعالى القوي القادر الذي بيده مقاليد السموات والأرض في قضاء حاجتك.؟!

---

[١] أخرجه الطبراني في الأوسط وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج وحسنه الألباني

[٢] البيهقي

[٣] مسلم وغيره

[٤] الشمائل للترمذي

كما فضل الله تعالى خدمة الناس على بعض الطاعات والعبادات فعن أنس ﷺ قال: كنا مع النبي في سفر، فنزلنا منزلاً في يوم شديد الحر، أكثرنا ظلاً من يستظل بكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، وكان منا الصائم ومنا المفطر، فنزل الصائمون، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركائب، فقال النبي كما في الصحيحين : (ذهب المفطرون اليوم بالأجر) لأنهم كانوا يخدمون الصائمين من إخوانهم فقضوا حاجتهم وسعوا على راحتهم .

ولله در القائل:

اقض الحوائج ما استطعت ** و كن لهم أخيك فارج

فَلَخَير أيام الفتى ** يوم قضى فيه الحوائج

نعم ..هذه هي خير أيام الفتى، لأنها اللحظة التي يرد فيها الجميل، ويشكر فيها النعمة ، وهي الطريقة التي يضمن بها بقاء هذه النعمة ودوامها عنده ، ولذلك قال النبي ﷺ: (إن لله تعالى أقواما يختصهم بالنعم لمنافع العباد، ويثبتها عندهم ما نفعوهم، فإذا هم لم ينفعوهم حوّلها إلى غيرهم) رواه الطبراني وحسنه اللباني

وعلى العكس أسوق إليك هذا الدرس القاسي لأناس حرموا عباد الله فحرمهم الله تعالى وما حرمهم الله إلا لأنهم بعدوا عنه وما بعدوا عنه إلا حينما بعدوا عن عباده الفقراء المساكين.!

هل تعلم من هؤلاء؟ إنهم أصحاب الجنة، من قص الله خبرهم، وضرب المثل بهم ، لعظم عملهم ، ليكون لنا فيهم عبرة ، وليتعظ بهم كل بخيل أراد حجب ما في يده عن الناس ، فلا يرق لجوعان أو يعطف على فقير محتاج..

إنهم لم يظلموا أحداً ، ولم يعتدوا على أحد .. وإنما كانت جريرتهم أن منعوا الخير، وحرموا المساكين.!أولئك هم أصحاب الجنة، الذين ضربهم الله تعالى مثلاً وعبرة لكل بخيل قتار فقال:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ، وَلَا يَسْتَثْنُونَ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ، فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ، أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ، فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ، أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ، وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ، قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ، قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ، عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ، كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) القلم: ١٧-٣٣

ويح أهل مكة.. لقد كان أهل الثراء والنعمة منهم، رغم كثرة مالهم، لا يكرمون اليتيم، ولا يحضون على طعام المسكين، ولا يجعلون في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم، بل كانوا يحتقرون الفقراء، ويسخرون منهم ويستهزئون بهم حيثما وَجدوهم، وكانوا يستنكفون أن يجلسوا مع النبي ﷺ وفي مجلسه واحد منهم، وقد طلبوا منه مراراً أن يجعل لهم يوماً، وللفقراء يوماً، ولأجل هدايتهم.. همّ النبي ﷺ بذلك..!ولكن الله سبحانه يرده عن ذلك ويأمره أن يصّبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ابتغاء وجهه..وجاءت الآيات تقرع آذانهم بهذا المثل الصارخ لمن

يبخلون على الناس ويزدرون الفقراء ، لتكون العبرة ماثلة أمامهم ، ويشاهدوا سنة الله في الناس ، فيعودوا إلى أنفسهم ويتفكروا في غباء صنيعهم.

فمن هم أصحاب الجنة؟ وما قصتهم؟

كانت قرية باليمن يقال لها: (ضروان) بالقرب من صنعاء، كان فيها رجل صاحب جنة عظيمة، قسمها وجعلها بينه وبين الفقراء، يأخذ منها ما يكفيه، وتزكوا نفسه سامحة بسائرها للفقراء، وكان لهذا الرجل ثلاثة من الأولاد، ورثوا جنته، حين توفي عنهم وزادهم الله بسطة وسعة في الرزق، ولكنهم لم يسيروا على سنة أبيهم، إذ بخلوا بما آتاهم الله من فضله، ومنعوا الفقراء والمساكين حظهم من هذه الجنة.

وقيل: كان منهم فتى عاقل صالح، دعاهم إلى البذل والعطاء، فلم يستمعوا لنصحه، واتفق الفتيان على حرمان الفقراء والمساكين، وأقسما على ذلك وحملا أخاهما قسراً على أن يخضع لرغباتهم، فيقسم معهم، ففعل وهو كاره، وبينما هم نائمون طاف على الجنة طائف من ربهم فأحرقها، فلما أصبحوا نادى بعضهم بعضاً، فلما اجتمعوا انطلقوا إلى جنتهم ليقطعوا ثمارها، وتواصوا ألا يدخلها اليوم عليهم مسكين.. وانتهى أصحاب الجنة إلى مكان جنتهم فوجدوه يبابا حالك السواد..!فقالوا في نفس واحد : (إنا لضالون) أي: إنا لمخطئون في ارتياد هذا المكان، فليس هو المكان الذي فيه جنتنا؛ وذلك لشدة المفاجأة، وهول الصدمة، ولكن ما لبثوا أن رجعوا إلى صوابهم وأدركوا عاقبة بغيهم، فقالوا بلسان الحال والمقال: (بل نحن محرومون)

إنه كيد الله بمن كادوا لعبيده.!

وأمثال هؤلاء من أصحاب القلوب القاسية على الناس ،كيف لهم أن يردوا على الحق تعالى يوم القيامة حين يسألهم..ففي الحديث: (يقول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! فيقول: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟! فيقول عز وجل: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟!)

(يجب على الإنسان إذا رأى أخاه في ضرورة، أن يدفع ضرورته، فإذا رآه في ضرورة إلى الطعام أو إلى الشراب أو إلى التدفئة، أو إلى التبردة، وجب عليه أن يقضي حاجته، ووجب عليه أن يزيل ضرورته ويرفعها..حتى أن أهل العلم يقولون: (لو اضطر الإنسان إلى طعام في يد شخص أو إلى شرابه، والشخص الذي بيده الطعام أو الشراب غير مضطر إلى هذا الطعام أو الشراب، ومنعه بعد طلبه، ومات هذا المضطر، فإنه يضمن؛ لأنه فرط في إنقاذ أخيه من هلكه)[(١)]

حتى الخطوة التي تخطوها في قضاء حاجة أخيك، يقدرها الله تعالى ويضاعف أجرها لك..! قال رسول الله ﷺ: (من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة ومحا عنه سبعين سيئة إلى أن يرجع من حيث فارقه، فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وإن هلك فيما بين ذلك دخل الجنة بغير حساب) رواه ابن أبى الدنيا والهيثمى

و ذم الرسول ﷺ من يأخذ أجراً أو يتقاضى أُجرة مقابل أن يؤدى خدماته للناس، أو يسهل لهم الأمور العسيرة لدى مسئول أو حاكم ..

[(١)] شرح رياض الصالحين لابن عثيمين جـ٢ صـ ٩٦ جـ الإيمان

حتى عدّ أخذ الأجرة والمقابل من الكبائر.
فعن أبى أمامةﷺ أن رسول الله ﷺقال: (من شفع شفاعة لأحد، فأهدى له هدية عليها فقبلها، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الكبائر.) رواه ابو داوود
فالشفاعة لله بلا انتظار شئ يُعطى، فإذا سعى الإنسان في قضاء حاجة لأخيه فقدم له هديه وقبلها ..كان قبوله لما أعطى كبيرة يحاسبه الله على ذلك حساباً عسيراً، ولا ثواب له في شفاعته السابقة، وحسبك قول النبي ﷺ:(اشفعوا فلتؤجروا)
قيل : (وفيه الترغيب في قضاء حوائج ومصالح الناس)
ويقول الشيخ الغزالي رحمه الله في خلق المسلم:
(واستخدام المرء جاهه لنفع الناس، ومنع أذاهم.. ينبغي أن يتم في حدود الإخلاص والنزاهة، فإن فعل ذلك لقاء هدية ينتظرها فقد أجره عند الله وأكل بعمله السحت)
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (من كان وصله لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ بر، أو تيسير عسير أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام) صحيح ابن حبان
بهذه الصورة المشرقة التي أرادها الرسول ﷺ للمجتمع المسلم.. تتحقق القوة للمسلمين، فلا تعبث ببقائه صور الضعف والفناء، لأن قواعده صُلبة تقوم على الحب والرحمة والرفق والمودة، ومحبة الخير للناس أمر واجب في الإسلام على كل مسلم ، ولازم لصدق الإيمان، وأثر للعقيدة السليمة النقية، ولذلك قال ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) رواه البخاري ومسلم
قال حسن أيوب في السلوك: (وأنت ترى أن الحديث صريح في نفي الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ولكن لما كانت أصول الشريعة قد عُلم منها أن من لم يتصف بذلك لا يخرج عن الإيمان.. فإن العلماء تأولوا هذا الحديث كما قال الصنعاني على معنى أنه: لا يكمل إيمانه، بل يكون ناقصاً، ويعتبر فقط عاصياً وليس كافراً، وبذلك يزول الإشكال في هذا الحديث وأمثال)

خدمة الناس عبادة

في صدر شبابي كثيرا ما كنت أدعو الله سبحانه وتعالى أن يمن علي بعمل ترضاهنفسي..ففي ظل البطالة المتفشية والفراغ القاتل الذي منيت به أجيالنا..كان من الممكن أن يقبل الإنسان بأي عمل مهما كان مهيناً حقيراً ..وكان هناك صراع كبير بين الواقع المؤلم وبين طموحاتي النفسية ، التي أفرزتها عوامل بيئية تربوية نشأت فيها..فمن خلال الصورة الإجتماعية التي أحاطتني كنت أرى نفسي شيئاً كبيراً ولا يجب أن أكون إلا شيئاً كبيراً ..لكن مع مرور الأيام وجدت أن الحقيقة خلاف ذلك، وأن البطالة والضياع ينتظران البقية الباقية من عمري ليعبثا بها.!
ولكن فضل الله علي كان كبيرا، فاستجاب دعائي ورجائي فعملت في أشرف الميادين ،وأكرم الهيئات، وقضيت وقتي وبذلت جهدي في العمل الخيري والدعوة إلى الله تعالى..وأصبح هذا العمل ليس مما ترضاه نفسي فحسب ، وإنما مما يرضاه الله ويرتضيه، ويخص به أهله وذويه ..وكثيرا ما كنت معجباً بقول القائل: (إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيما أقامك)

وفي يوم من الأيام تجاذبت أطراف الحديث مع والدي رحمه الله ، واستعدت ذكريات الضياع المؤلمة، وكان مما قلت له :لقد استجاب الله دعائي حينما كنت أدعوه فأقول: اللهم ارزقني بعمل ترضاه نفسي ..
فقال لي والدي: ولكني كنت أدعو لك بدعاء غير ذلك ..!
وكنت أقول:اللهم ارزقه بعمل يرضيك ويرضينا..!
وهنا سرى في خاطري ما غاب عن إدراكي..فليس الصواب أن ترضى نفسي عن العمل ..ولكن الصواب أن يرضي الله تعالى أولاً وأخيراً..وشعرت بوخذة في نفسي حينما غاب هذا المعنى عن ضميري ..وعلمت أن دعوة أبي أصابتني وفي الصميم، فليس في الدنيا أجمل من أن تكون في خدمة الآخرين ؛ لأنه أفضل الأعمال التي ترضي عنك ربك سبحانه..وهي الفضيلة التي أقرها ديننا وجعلها من صور العبادة التي يثاب عليها صاحبها.
ودائماً ما كنت أتمثل حديث الإمام المجاهد (سعيد النورسي) حينما التقى بالرعاة في السهول الخضراء وهم يرعون حيواناتهم في مروج بين الجبال والوديان والسهول ، يلاطفهم ويقول لهم: إنكم إذا ما أديتم الصلاة في أوقاتها الخمسة خلال اليوم فإن اليوم بكامله يصير بمثابة عبادة لكم ، لأنكم برعيكم هذا تقدمون خدمة كبيرة للبشرية ؛ فإن انتفاع بني البشر من أصوافها ولحومها وحليبها وألبانها هو بحكم الصدقة لكم.
وكان ابن عباس معتكفاً في مسجد رسول الله ﷺ ، فأتاه رجل فسلم عليه ثم جلس، فقال له ابن عباس: (يا فلان، أراك مكتئباً حزيناً، قال: نعم يابن عم رسول الله، لفلان على حق ولاء، وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه! قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك؟ قال: إن أحببت؟ قال: فانتعل ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ قال: لا، ولكنى سمعت صاحب هذا القبر، والعهد به قريب –ودمعت عيناه- يقول: من مشى في حاجة أخيه، وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين) البيهقي
وفي رواية: (كل خندق أبعد مما بين الخافقين)!!
ما أعظم فهم ابن عباس رضي الله عنهما لحقيقة الإسلام وروح الدين..لقد آثر أن يترك الاعتكاف هذه العبادة العظيمة وفي أشرف الأمكنة ..مسجد الرسول ﷺ الذي يتضاعف فيه الأجر والثواب بألف مرة فوق غيره من المساجد الأخرى.!
آثر ابن عباس أن يترك الذكر والدعاء والصلاة والخشوع وقراءة القرآن.!
لماذا؟ وهل هناك أعظم من هذه المظاهر التعبدية؟
نعم ..إنها خدمة الناس والسعي في قضاء حوائجهم خير من الاعتكاف سنوات وسنوات.!
وهو ما وعاه (الحسن البصري) وأدركه ، وعاب فيه على (ثابت البناني) حينما بعث إليه قوماً من أصحابه في قضاء حاجة لرجل وقال لهم: (مروا بثابت البناني فخذوه معكم فأتوا ثابتاً فقال: أنا معتكف، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه، فقال: قولوا له: يا

أعمش أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة.. فرجعوا إلى ثابت فترك اعتكافه وذهب معهم) [١]
إن ثابتاً قام للصواب ، وهرول لخدمة أخيه المسلم،مستجيباً لتذكرة الحسن غير مجادل أو مكابر .. وهكذا كانت أخلاق السلف.
وليحذر فاعل الخير ، ومعين الناس ، أن يمارس هذه العبادة العظيمة، قبل أن يصحح فيها نيته، ويحرر قصده، فلا تشرع فيها ومقصدك ثناء الضعفاء ، والرغبة فيما يذيعونه عنك بين الناس..لا تُعينهم بمالك ليقول الناس عنك: إنك خيّر معطاء.. فإن لم تصحح النية، فلا قيمة عند الله ، لهذا الصنيع الذي يتحول من العبادة إلى فضيلة تأخذ عليها أجرك من المجتمع..الذي يمدحك ويثني عليك ، قال ﷺ فيما جاء عن رب العزة سبحانه: (من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته له كله)
(إن كل عمل اجتماعي نافع يعده الإسلام عبادة من أفضل العبادات، مادام قصد فاعله الخير، لا تصيد الثناء، واكتساب السمعة الزائفة عند الناس، كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يضمد به جراح منكوب، أو يسد به رمق محروم، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضى به دين غارم مثقل، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال، أو يهدى حائراً، أو يعلم جاهلاً، أو يؤوى غريباً، أو يدفع شراً عن مخلوق، أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعاً إلى ذي كبد رطبة، فهو عبادة وقربة إلى الله إذا صحت فيه النية)[٢]
كم أغبط هذا المسلم الذي جعل الله تعالى عمله في ميدان الدعوة، فهو يقضي عمره ويفني أوقاته، ترغيباً في الإسلام ودعوة إلى فضائله، وأكثر منه هذا الذي يدعو إلى ربه ، لكنه مهموم بخدمة الناس ويعمل في تيسير أمورهم.. ويالها من لحظة ممتعة، حينما يفارقني المتعثر بعد أن أزال الله تعالى كربه وعسره على يدي ، ولسانه يتمتم بالدعوات الصالحة ، يسأل ربه أن يمنحني الخير والبركة ويملأ قلبي بالسعادة والسرور.. إن هذه الدعوات أحب إلي من الدنيا وما فيها، وأثمن في وجداني من الكون كله.. وحينما أذهب لنومتي أشعر بقلب يفيض سعادة ونشوة كبيرة، ولا أرى غضاضة إن باهتني الموت بعد أن حققت سعادة الآخرين.
يقول شيخنا الغزالي:
(إن بعض المتدينين يفرقون بين صور العبادات المأثورة، وأداء الأعمال المدنية المختلفة، الأولى عندهم دين، والأخرى ليست عبادة إلا على ضرب من التجوز.. رأيت بعضهم على مكتبه جالساً بادي السآمة، يجيئه الناس لحاجاتهم فيرجئ ما يشاء، ويهمل ما يشاء، حتى إذا اقترب وقت الظهر، شرع يستعد له قبل الأوان .. قلت له: إن ما تقوم عنه ليس بأهون مما تقوم له.. ونشاطك في إنجاز مصالح الناس في أقصر وقت، وعلى أحسن وجه دين، وهو واجب كالصلاة والصيام! قال: إننا نستعد للصلاة المكتوبة، وسنؤدي عملنا بعد أداء حق الله! قلت: جميل أن تحرص على الصلاة في وقتها، ولا عليك أن تصليها أول الوقت أو وسطه! وخير لك أن تعجل بإنجاز عمل

---

(١)- جامع العلوم الحكم لابن رجب الحنبلي
(٢)- الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف د/يوسف القرضاوي

هذا القادم من بلده القلق على مصلحته، خاصة وأن الصلاة تربى الإنسان على الشعور بالواجب ولا تستغرق من الزمن أكثر من بضع دقائق معدودة)[١]

روى البخاري بسنده عن (معاوية بن قرة) قال :كنت مع (معقل المزني) فأماط أذىً عن الطريق فرأيت شيئاً فبادرته فقال : ما حملك على ما صنعت يابن أخي؟قال: رأيناك تصنع شيئا فصنعته قال : أحسنت يابن أخي :سمعت النبي ﷺ يقول: (من أماط الأذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة ومن تقبلت له حسنة دخل الجنة)[٢]

إن خدمة الناس، وكف الأذى عن البشر في نظر الإسلام ، لا تقل عن نظرته لأنواع العبادات كالزكاة والصلاة والذكر وما ماثلها..ثم وإنها من أرفع العبادات لأنها تعكس حالة هذه النفس التي أُجهدت وحَرمت نفسها من الراحة لأجل راحة الغير، وهو مشهد عظيم ..لا يتم إلا لنفس روضت واقعها بكثير من المجاهدات والرياضات النفسية ، حتى صفت من معالم الرزيلة ، وتشبعت بمعرفة الله تعالى.

إنه طريق لا يسلكه إلا من أراد الله به الخير ، لأنه فهم نير لمقاصد الدين، وأنت قد رأيت كيف غابت عن (ثابت البناني) وهو العابد الزاهد حتى فهّمه الحسن البصري، ولكن ..ما أكثر القاصرة أفهامهم، يعكفون ليل نهار في المحاريب يتعبدون ويذكرون ويصومون، ويعزفون عن خدمة الناس ونفعهم.. وهؤلاء لم تتطهر نفوسهم بهذه العبادة الصارمة، إنهم مازالوا عند حظوظ أنفسهم مقصرين في محبة الله، لأنهم قصروا في محبة خلقه.

و عن (أبى قلابة) أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قدموا يثنون على صاحب لهم خيراً قالوا ما رأينا مثل فلان قط :ما كان في مسير إلا كان في قراءة ، ولا نزلنا منزلا إلا كان في صلاة قال :فمن كان يكفيه ضيعته - حتى ذكر- :وكان يعلف دابته أو جمله ؟ قالوا نحن .قال: فكلكم خير منه.) [٣]

إن تقدير الصحابة لأخيهم عظيم ، لأنه بلغ القمة في العبادة ، ونال درجة طالما راودت خيالهم..لقد كان يومه موصولاً بالذكر والصلاة، ولكن الرسول ﷺ يتدخل ليصحح مفهوم العبادة في الإسلام..لقد حكموا عليه، ورفعوا قدره لمكانةٍ كبيرة ، حتى جاءهم سؤال الرسول المعلم ﷺ: (من كان يكفيه ضيعته؟) -أي يتكفل معاشه- فلما أجابوا ، تغيرت الصورة تماماً، وكانت كما عبر عنها شيخنا الدكتور (محمود عمارة)رحمه اللهبقوله:

(أنزل الرسول ذلك العابد من قمته التي اقتعدها، ليقيم عليها من قضوا حوائجه!! وإن كانوا أقل منه ذكراً!. مفضلاً خدمة الناس على العبادة المحضة التي لم تحقق ثمارها.. جاعلاً جزاءها أعظم أنوع الجزاء.!)

و يحكي بعض أعلام الدعوة أن بعض إخوانه كان في رحلة، وفي ليلة من الليالي استيقظ بعد منتصف الليل، فتوجه للوضوء ليصلى ما يكرمه الله به، وإذا به بعد الانتهاء من الوضوء، يرى ملابس إخوانه قد ملأت سلة ملابس المغسلة، ولعدم وجود وقت للراحة ، كان هذا الكم من الملابس، فتحركت إيجابيته بفضل من الله، وقام الأخ الكريم بغسل ملابس إخوانه، وقبل صلاة الفجر، كان قد انتهى، فصلى

---

[١] - مشكلات في طريق الحياة الإسلامية : محمد الغزالي.

[٢] - حديث حسن - انظر صحيح الجامع للألباني

[٣] - رواه أبو داود في مراسيله

الوتر مكتفياً به عن قيام الليل، ثم أيقظ إخوانه لصلاة الفجر.!يقول محدثي: إنه قد وجد في نفسه سمواً إيمانياً لم يكن يجده في تعبداته السابقة.
ولا ريب أن يشعر بذلك.. فقد حقق بفعله معنى الأخوة في أسمى ما يكون، والله تعالى قد جعلها من معالم الإيمان حينما قال : (إنما المؤمنون إخوة) الحجرات : ١٣
(إن من علائم الأخوة الكريمة أن تحب النفع لأخيك، وأن تهش لوصوله إليه، كما تبتهج بالنفع يصل إليك أنت، فإذا اجتهدت في تحقيق هذا النفع فقد تقربت إلى الله بأزكى الطاعات وأجزلها مثوبة)[١]
وفي قرية ضل أهلها سواء السبيل..وفقدوا عقولهم التي وهبهم الله إياها ..تفترسهم الأمراض ، وينكل بهم الفقر والعوز ، وتقتلهم الحاجة وضيق اليد ، ويحقد بعضهم على بعض إن تميز أحدهم عن الآخرين بمال أو عقار أو بنين...كل هذا الهلاك ، ويذهبون ليضعوا الملايين المملينة في بناء مسجد مع امتلاء قريتهم بالمساجد..وشبابهم ورجالهم ومرضاهم وضعفاؤهم في حاجة لمال ينهض بهم وينقذهم من مآسيهم عبر مشروع أو مصنع أو مشفى أو مدرسة ترتقي بتعليم أبنائهم..
عجباً لهؤلاء.. كيف يفكرون؟ وكيف يتصرفون؟!
يقولون: المال نتقرب به إلى الله، نبذله ولا نضن به في سبيل الله.! وفي وقتٍ تصيب المسلمين فيه نكبات شتى ، ما بين احتلال واستعمار، وسفك دماء وهتك أعراض، وما بين استبداد وعمالة وفقر وفساد وعلل وأمراض..ترى السفاهة في الإنفاق، والجهالة في المقصد، والعقل الذي تخدعه الأهواء.
وهي نفس الصورة التي ذكرها (القرضاوي) حين قال: (رأيت من المسلمين الطيبين في أنفسهم من يتبرع لبناء مسجد في بلد حافل بالمساجد، قد يتكلف نصف مليون، أو مليوناً أو أكثر من الجنيهات أو الدولارات، فإذا طالبته ببذل مثل هذا المبلغ أو نصفه أو نصف نصفه في نشر الدعوة إلى الإسلام أو مقاومة الكفر والإلحاد، أو تأييد العمل الإسلامي لإقامة الشرع وتمكين الدين، أو نحو ذلك من الأهداف الكبيرة، التي قد تجد الرجال ولا تجد المال، فهيهات هيهات أن تجد أذناً مصغية، أو إجابة ملبية، لأنهم يؤمنون ببناء الأحجار، ولا يؤمنون بناء الرجال!
وفي موسم الحج من كل عام أرى أعداداً غفيرة من المسلمين الموسرين يحرصون على شهود الموسم متطوعين، وكثيراً ما يضيفون إليه العمرة في رمضان ينفقون في ذلك عن سخاء، وقد يصطحبون معهم أناسا من الفقراء على نفقتهم، وما كلف الله بالحج ولا العمرة هؤلاء.
فإذا طالبتهم ببذل هذه النفقات السنوية ذاتها لمحاربة اليهود في فلسطين، أو الصرب في البوسنة والهرسك، أو لمقاومة الغزو التنصيري في إندونيسيا، أو بنجلاديش،أو غيرها من بلاد آسيا وإفريقيا، أو إنشاء مركز للدعوة، أو تجهيز دعاة متخصصين متفرغين، وتأليف أو ترجمة ونشر كتب إسلامية نافعة، لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون.

[١] - خلق المسلم : للغزالي.

هذا مع أن حجهم واعتمارهم من باب التطوع والتنفل، أما جهاد الكفر والإلحاد والعلمانية والتحلل، وما يسندها من قوى داخلية وخارجية، فهو الآن فريضة العصر، وواجب اليوم.

فليت الذين يتطوعون بالحج –وهم الأكثرية!- ومثلهم الذين يتطوعون بالعمرة طوال العام، وخصوصاً في شهر رمضان، يتنازلون عن حجهم وعمرتهم، ويبذلون نفقاتهما في سبيل الله، أي في إنقاذ إخوانهم المسلمين والمسلمات، الذين يتعرضون للهلاك المادي والمعنوي، وللعدوان الغاشم، الذي يستبيح كل حرماتهم، ولا يريد أن يبقى لهم من باقية، والعالم المتقدم يرى ويسمع، ولا يحرك ساكناً لأن الغلبة لحق القوة، وليس لقوة الحق!!) [1]

وكثيرا ما كان الشيخ القرضاوي يدعو لاستحضار هذا الفقه الذي قد تزوغ منه بعض العقول، فقد رأى يوما بعض المتدينين الطيبين من أقاربه وأصدقائه، الذين يحرصون غاية الحرص على أداء شعيرة الحج كل عام، ومنهم من يحج سنوياً منذ أربعين سنة، وقد بلغ عددهم ١٠٠ شخص ، وكان الشيخ حاضرا لتوه من إندونسيا وشاهد ما يصنعه التنصير هناك من أعمال هائلة، وحاجة المسلمين الماسة إلى مؤسسات مقابلة، تعليمية وطبية واجتماعية . فذكر هؤلاء المتدينين وقال لهم ما رأيكم لو نويتم ترك الحج هذا العام ، وتبرعتم بنفقاته لمقاومة التنصير.؟!أنتم تبلغون ١٠٠ شخص.. كل شخص منكم يتكلف ١٠٠٠٠ جنيه = (١٠٠٠٠٠٠) لمليون جنه، ويمكن أن يكون هذا المبلغ نواة قوية لمشروع كبير، ولو أعلنا عنه لربما قلدنا فيه آخرون، فكان لنا أجر من اتبعنا.

فإذا بهم يقولون :إننا كلما جاء موسم الحج أحسسنا برغبة لا نستطيع أن نقاومها للحج والمناسك، ونحس بأرواحنا تحلق هناك، ونشعر بسعادة غامرة كلما شهدنا الموسم مع الشاهدين.

فرد الشيخ عليهم بقوله : ولو صح الفهم وصدق الإيمان، لكان على المسلم أن يشعر بسعادة أكبر، وروحانية أقوى، كلما استطاع أن يقيم بنفقات الحج مشروعاً إسلامياً، يكفل الأيتام، أو يطعم الجائعين، أو يؤوى المشردين، أو يعالج المرضى، أو يعلم الجاهلين، أو يشغل العاطلين.

ورحم الله خامس الخلفاء الراشدين حينما كتب إليه حجابه ليأمر بكسوة الكعبة المعتادة كل عام، والتي تكلف كثيراً من المال ، فما كان منه إلا أن منع ذلك وكتب: إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة، فإنه أولى بذلك من البيت!

أرأيت: إنها الكعبة بيت الله . . يمنع عنها الكسوة من أجل الأكباد الجائعة . . فما أفقهه وأرحمه.

يسارعون في الخيرات

طلع الإسلام على الدنيا فكان مخلصاً للإنسان من دنيا العذاب والهموم ، وكان النبي ﷺرمزاً عظيما للرحمة والإشفاق في زمن تجمدت فيه المشاعر ، وصار الإنسان لا

---

[1] فقه الأولويات دراسة في ضوء القرآن والسنة .د-يوسف للقرضاوى

يدري آلام أخيه الإنسان، حتى تحولت الدنيا إلى غابة موحشة ، يأكل القوي فيها الضعيف، ويطغى الكبير فيها على الصغير.

وفي دوحة القرآن الكريم نرى ونشاهد صور البر بالإنسان والحث على تقديم الخير للبشر والرحمة واللطف بالعالمين ، وهي السجايا التي حينما تخلق بها المسلمون ، أقبلت عليهم الملايين من شعوب الأرض تتلمس هدايتهم، وتعتنق دينهم ، الذي وجدوا فيه ضالتهم ونشدوا فيه راحتهم في عصر القهر والظلمات. !

لقد حث الله تعالى عباده المؤمنين على الخير وفعله في أكثر من موضع من القرآن الكريم فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) (الحج : ٧٧)

وما أروع القرآن حينما يقرن في آياته فعل الخير وتقديمه للناس بأسمى عبادة في الإسلام وأعلاها وهي الركوع والسجود ، أي الصلاة..إنها رغبة إلهية نلمس مقصدها وهي تريد أن تغرس السعادة في حياة الناس، فيشملهم الخير والبر ويعيش كل فرد في الحياة هانئاً مرتاح البال..!

ما أروعه من دين حينما جعل تقديم الخير للبشر.. من أسباب الفلاح..!!

قال تعالى في صفة المؤمنين الموحدين الوجلين بأنهم : (يسارعون فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) (المؤمنون: ٦١)

وفيها إشادة بهمتهم العالية التي بلغت نهايتها في فعل الخير ..

ويظهر لنا المولى الكريم ثناءه على الأنبياء والصالحين ويبين لنا بعض سماتهم التي كانت سبب امتداحهم وتميزهم فكان منها:(إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين)(الأنبياء : ٤٨)

وهنا لفتة رائعة نسوقها للفائدة ، فالله تعالى قدم المسارعة في الخيرات على معالم التوحيد، من الدعاء والخشوع له سبحانه وتعالى رغباً ورهباً..

ثم يحث المؤمنين على المسارعة في فعل الخير ، فيقول: (.. فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)(المائدة: ٤٨)

ويبين لهم أن كل أفعالهم ستعود عليهم ويجدون أثرها في دنياهم وأخراهم ..وأن كل ما يقدمونه من خير إنما هو لأنفسهم فيقول تعالى :

"وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ" البقرة:٢٧٢

وفي سورة آل عمران بعد أن بين الله تعالى سمات الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وذكر أفعالهم ...شرع في بيان الأمة المستقيمة وبيان أفعالها وثوابها.. وكان من ضمن ما وصفهم به، أنهم يسارعون في الخيرات قال تعالى:

(لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) آل عمران: ١١٣-١١٥

(وما يفعلوا من خير فلن يكفروه)

أي لن يحرموا ثوابه أو يفوتهم أجره، بل سيأخذونه كاملاً.

كما ذكر الله تعالى أن أمة المسلمين هي خير أمة أخرجت للناس ، ولكن هذا التفضيل لم يكن مجرداً وإنما كان له أسبابه ومقوماته..وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله:
(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران: ١١٠)

وهنا سؤال يطرح نفسه لماذا قدم الحق تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله مع أن الإيمان بالله أولى وألزم؟!.ذلك ..أنه قدم ما كان خيره متعدياً عاماً على ما كان خيره قاصراً خاصاً.. فالإيمان لازم ..ولكنه يفيدك أنت وحدك، أما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيفيد الجميع، ويهدى الجميع، ومن هنا قدمه الله تعالى..

وهل هناك خير من نصيحة تقدمها لغيرك وترشده بها ، وأن تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر؟! فاحرص إذن على الخير وقدمه كما قدمه ربك سبحانه، ولا تكن كـ(الوليد) رأس الكفر الذي عَرّض به القرآن وذمه الله تعالى ووصفه بقوله: (مناع للخير)

وإليك أمر هذه النملة التي خلد الله تعالى فعلها في القرآن حينما أسرعت لتنبيه قومها من الهلاك المحدق بهم والزلزال المروع الذي سيدهمهم بعد قليل..إنه زحف سليمان وجنوده الذي سيهدم قراهم وبيوتهم ، ويزلزل الأرض تحت أقدامهم..فقال تعالى على لسانها :

(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) النمل:١٨

إنها لم تفر بنفسها وتنجو بروحها وتقول: أنا ومن بعدي الطوفان، وإنما كان أول عملها حينما علمت بما سيحدث أن أنذرت قومها تبغي نجاتهم فحذرت ونوهت للخطر المروع الذي سيشهدونه ، وهى إشارة قوية للمؤمن أن يكون خيراً على الناس، وسبباً لنجاتهم من الأخطار.

وفي قرية من القرى قيل: إنها (أنطاكية) ، عبد الناس أصناما وأحجارا من دون الله ، كانوا يسجدون لها ويتبركون بها وهي لا تضر ولا تنفع ، فأرسل الله سبحانه إليهم رسولين يدعونهم للنور والهداية ، ونبذ عبادة الأوثان، ولكن أهل القرية كذبوهما وصدوهما ورفضوا نصحهما ودعوتهما ، فأرسل الله تعالى رسولاً ثالثاً حتى يعزز به دعوتهم ، لكن القوم مضوا في غيهم ونكرانهم ، وقالوا ساخرين : لقد تشاءمنا منكم ، ولا نرى قدوم الخير بوجودكم ونتوقع أن يأتينا الشر بسببكم ، وإذا لم تنتهوا لنرجمنكم بالحجارة وسيصيبكم منا عقوبة أليمة شديدة ..

فرد عليهم الرسل بقولهم: إن طائركم معكم ونكرانكم ووعيدكم لم يكن إلا لأننا ذكرناكم ودعوناكم لتوحيد الله وإفراده بالعبادة، ويسمع (حبيب النجار) بهذا الاحتدام بين قومه والرسل المبعوثين، وكان حبيب رجلاً سقيماً مريضاً بالجزام، وكان كثير الصدقة، وقيل إنه كان يتصدق بنصف كسبه، وهو مستقيم الفطرة ، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوها حتى تفرج عنه بلاءه ، وكان ممن لقيهم الرسل فدعوه لعبادة الله وحده ، فقال لهم هل من

آية ؟ فقالوا له نعم.. إن الله على كل شيء قدير والأصنام التي تعبدها حجارة لا تضر ولا تنفع ، والله تعالى قادر أن يكشف عن بلاءك ، فدعوا الله له أن يزيل عنه ما به من مرض ، فأزاح الله عنه وصار كأن لم يكن به شيء أصابه ، فآمن بالله وعرف نعمته وأقبل على التكسب ، وكان إذا أمسى تصدق بكسبه ، فأطعم عياله نصفاً وتصدق بنصف، ويضيق قومه بالرسل ودعوتهم ويهمون بقتلهم فيسمع فيسرع مهرولاً إلى قومه فيعظهم ويذكرهم بقدرة الله ويذكرهم بخطئهم في تكذيبهم وعنادهم لمن بعثهم الله إلى هدايتهم ، فلما نصحهم ضاقوا به ذرعاً ولم يطيقوا منه ذلك فقتلوه، فصعدت روحه عند الله وغمسه الله في نعيم الجنة.. وهنا يصف القرآن الكريم هذا المشهد الرائع، والنفس الإنسانية الرفيعة، التي ما نسيت غيرها حتى ولو كان هذا الغير ممن أساء إليها وأهانها وأهدر روحها وحرمها من حق الحياة ، قال تعالى :(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) (يس:٢٦-٢٧)

هكذا كان جوابه ..! وهكذا كانت أمنيته فما أسمى نفسه! وما أطهر فؤاده! فرغم ما لقي من الأذى والامتهان والقتل من هؤلاء المشركين المكذبين الأشرار ، فإنه مازال سمحاً سامياً يرجو لهم الخير ويأمل لهم النجاة والنعيم ، وإنها لسمات المخلصين المصلحين الأوفياء للإنسانية وبني الإنسان ، مهما لقوا من كره وضيم ..فإنهم على العهد قائمون ، وفي سبيل الخير مضحون.

ثم يقول تعالى عن موسى والخضر عليهما السلام:

(فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً) (الكهف:٧١)

(تعرف موسى بالخضر عليهما السلام، وطلب منه أن يتبعه ويصحبه حتى يأخذ ما عنده من علم لا يعلمه..وجاءت سفينة فاستأذنا أصحابها بالركوب وكان أصحابها كرماء محسنين فأذنوا لهما ولم يأخذوا منهما أجراة، مبالغة في إكرامهما وطمعاً في دعائهما لما رأوا على وجهيهما من سيماء الصلاح والنور، ولما سارت السفينة وكانت في عرض البحر قام الخضر فخرقها بيده ، وقيل اقتلع منها لوحاً ! وهنا ثارت ثائرة موسى عليه السلام، وأنكر فعل الخضر الذي يوحى بالإيذاء والفساد، وينفعل عليه أن ظهر منه ما يسوء للناس ويودي بهلاكهم ، فقال:

(أخرقتها لتغرق أهلها) ؟! لقد كانا يركبان أيضاً على نفس السفينة التي خرقها الخضر..!كان الأولى بموسى لو أنه يلتفت إلى نفسه أن يقول: أخرقتها لتغرقني أو لتغرقنا.. ولكنه قال: لتغرق أهلها ..فهو أشد حرصاً على نجاة أهلها منه على نفسه، وهذا هو ما يتحلى به الأصفياء من حب الخير للناس وإنكار الذات.!

ويحكي لنا أحد الإعلاميين قصة طريفة حدثت له في صغره، وكيف تعلم منها الإيجابية والمسارعة لتلبية النداء لكل من أصابته ضائقة أو نزلت به نازلة أو مشكلة حيث يقول: كنت في بداية المرحلة الإعدادية حين شبّ حريق هائل في قريتي (منية البندرة) مركز السنطة غربية ..كنت طفلا مدللا عند أهلي الذين خرجوا جميعا كبقية أبناء القرية الشجعان لإنقاذ البيوت المحترقة وإنقاذ المواشي من الحظائر التي كانت جزءا من هذه الدور كشأن أي قرية.

كانت الحرائق و صراخ النساء وعويل الأطفال يرعبني فلا أجد وقتها أنا و أمي إلا الجلوس في البيت ندعو الله أن يلطف بالقرية وأهلها، و كانت أمي أيضا تصاب بالهلع من الحرائق و مآسيها..المهم..بعد انتهاء الحريق خرجت لأقف أمام المنزل بعد أن اطمأن قلبي و هدأت أعصابي، فإذا بشاب معروف لدى الجميع مهندس زراعي يقترب مني و يأخذ بى جانبا و يقول : أنت مال هدومك نضيفه كده و مش عليها أي آثار للمشاركة في إطفاء الحريق (طبعا الناس كلها كانت متبهدلة) ..و قال باستغراب : هوة أنت مرحتش تطفي الحريقة مع أهل البلد ؟!

قلت له لا ..بس قعدت ادعى و أقرأ قرآن مع أمي، قال لي : تعرف انك لو ساهمت في إنقاذ جاموسة أو حمار أو أرنب أو بطة من حظيرة المواشي أو الفراخ لأي واحد من اللي بيته بيتحرق ..دى ممكن تساوى عند ربنا في ثوابها قراءة القران وصلوات القيام و النوافل فما بالك لو أنقذت حياة إنسان أو طفل أو ساعدت امرأة أو شيخ عجوز ..!

و قال لي : تعرف إن النبي المعصوم كان أول من يهب عند الفزع لأي حادث يصيب الناس يسبقهم إليه؟ .. بعد هذا الحريق بفترة وجيزة شب حريق في أحد الدور، وكنت أول من هب للمشاركة بعد أن نزع هذا الموقف التربوي كل الخوف و الهلع من قلبي من الحرائق و الحوادث، وبعد أن علمني هذا الرجل أن الدين إذا لم يكن لبناء المجتمع و إنقاذ حياة الناس من كل خطر يحيط بهم فإنه يكون فهما منقوصاً لحقيقة هذا الدين.!

طريق النجاة

يقول الله تعالى: (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ، وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) (الإنسان:١٢)

بماذا ولماذا كتب الله سبحانه النجاة لهؤلاء الأماجد ، الذين تحدثت عنهم الآيات المباركة ؟..لا شك أن ما فعلوه هو سبيل النجاة ، والطريق الأمثل لرضاء الله ، والحجاب المانع من وحشة الآخرة وأهوال القيامة ومخاوفها..!

لقد دفع الله عنهم ما كانوا يحذرونه في الدنيا من بؤس هذا اليوم وشره بما كانوا يعملون في دنياهم من أعمال ترضيه ، وكان الجزاء أن لقاهم نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم..والآيات في سياقها المتتابع تجيب عن استفهامنا ولم تأت بالنتيجة دون أن تلفت للسبب ..وإنما ذكرته ابتداءً حيث يقول تعالى : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً، إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً)(الإنسان: ٨-١٠)

نزلت الآيات تحمل البشرى لهؤلاء العظماء ، الذين تفانوا في حب الناس وآثروا المحتاجين باللقمة في فمهم ..حتى استحقوا هذه البشرى العظيمة في التنزيل الخالد ،إنه البر لله وحده وفي سبيله وحده، لا يشركون فيه أحدا آخر..!

روي عنه ﷺ أنه قال :(سلك رجلان مفازة : أحدهما عابد ، والآخر به رهق ، فعطش العابد حتى سقط ، فجعل صاحبه ينظر إليه ومعه ميضأة فيها شيء من ماء ، فجعل ينظر إليه وهو صريع ، فقال : والله لئن مات هذا العبد الصالح عطشا ومعي ماء ، لا أصيب من الله خيرا أبداً ، وإن سقيته مائي لأموتن ، فتوكل على الله عز وجل ،

وعزم ورش عليه من مائه وسقاه من فضله ، قال : فقام حتى قطعا المفازة ، قال : فيوقف الذي به رهق يوم القيامة للحساب ، فيؤمر به إلى النار ، فتسوقه الملائكة ، فيرى العابد ، فيقول : يا فلان ، أما تعرفني ؟ ، قال : يقول : من أنت ؟ قال : أنا فلان الذي آثرتك على نفسي يوم المفازة ، قال : يقول : بلى ، أعرفك ، قال : فيقول للملائكة : قفوا ، قال : فيوقف ، ويجيء حتى يقف ويدعو ربه ، يقول : يا رب ، قد تعرف يده عندي ، وكيف آثرني على نفسه ، يا رب هبه لي ، فيقول : هو لك ، قال : ويجيء فيأخذ بيده فيدخله الجنة) [(١)]

لقد استطاعت هذه التضحية أن تقلب النتيجة يوم القيامة، واستطاع هذا الإيثار أن يغير الوجهة ويبدل الحال من النار إلى الجنان.!ويوم القيامة . . وما أدراك ما يوم القيامة؟ هو اليوم الذي تشيب لهوله الغلمان، وتذوب فيه القلوب رغباً وخوفاً .. ويكون الإنسان في مواقف شتى، ويكون بحاجة ولو لحسنة واحدة، أو نصف حسنة تُثقل ميزانه وترفع درجته.!

روى عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يخرج خلق من أهل النار ، فيمر الرجل بالرجل من أهل الجنة، فيقول: يا فلان أما تعرفني؟ فيقول: ومن أنت؟ فيقول: أنا الذي استوهبتني وضوءاً- أي الماء الذي يتوضأ به- ، فوهبت لك، فيشفع فيه ويمر الرجل فيقول: يا فلان أما تعرفني؟ فيقول: ومن أنت؟ فيقول: أنا الذي بعثتني في حاجة كذا وكذا.. فقضيتها لك فيشفع له فيشفع فيه)[(٢)]

روى أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ قال:

(من أعان عبداً في حاجته.. ثبت الله له مقامه يوم تزول الأقدام)

ولكن هذا الطريق ليس طريق النجاة في الآخرة فقط..ولكنه كما دلت النصوص فهو طريق النجاة في الدارين معا ..الدنيا والآخرة .. فالصدقة تدفع البلاء عن المتصدّق وأهل بيته، و تمنع ميتة السوء، و قد بيّن النبي ﷺ ذلك بالتمثيل..حين قال: (إن الله أمر يحي بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها و يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ..) فذكر الحديث الطويل و فيه: (وآمُرُكم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدوُّ، فأوثقوا يده إلى عنقه، و قدّموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم ...) الترمذي

يقول (ابن القيم) رحمه الله في الوابل الصيب تعليقه على الحديث:

(إن للصدقة تأثيرًا عجيبًا في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم و عامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرّون به لأنهم جرّبوه ..وفي تمثيل النبي ﷺ ذلك بمن قدّم ليضرب عنقه، فافتدى نفسه منهم بماله، كفاية، فإن الصدقة تفدى العبد من عذاب الله تعالى، فإن ذنوبه و خطاياه تقتضي هلاكه، فتجيء الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه)

وقد أخبر النبي ﷺ أن الصدقة تدفع البلاء، وتمنع ميتة السوء..حيث قال:

(إن الصدقة لتطفئ غضب الربّ، و تدفع ميتة السوء.)

---

(١) مسند أبي يعلى الموصلي

(٢) رواه ابن أبى الدنيا باختصار وابن ماجة، وتقدم لفظه والأصبهانى، واللفظ له

و قال: (باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطّاها)
و قال: (الصدقة تسُدُّ سبعين باباً من السوء)
وقال: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء، و صدقة السّر تطفئ غضب الربّ)
وقَالَ: (الصدقة تمنع سبعين نوعا من أنواع البلاء ، أهونه الجذام ، والبرص)[٢]
والشواهد من الواقع المحسوس على تأثير الصدقة في رفع البلاء كثيرة فقد ذكر الهيتمي في الزواجر: (أنه تقرّح وجه أبي عبد الله الحاكم قريباً من سنة، فسأل أهل الخير الدعاء له فأكثروا من ذلك، ثم تصدق على المسلمين بوضع سقاية بنيت على باب داره وصب فيها الماء، فشرب منها الناس فما مر عليه أسبوع إلا وظهر الشفاء وزالت تلك القروح، وعاد وجهه أحسن ما كان)
وحينما يموت الانسان فإنه لا يختار من العمل الصالح لورجعللدنيا غير الصدقةكمافي قوله تعالى : (رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق)
ولم يقل هنا: لأعتمرأو لأصلي أو لأصوم؟
قال أهل العلم : (ما ذكر الميت الصدقة إلا لعظيم ما رأى من أثرها بعد موته..)
ومما قرأت من القصص العجيبة.. أن امرأةً رأت رؤيا أنَّ رجلاً من أقاربها لدغته أفعى سامة فقتلته ومات على الفور، وقد أفزعتها هذه الرؤيا وأخافتها جداً ، فتوجهت إلى بيته وقصّت عليه رؤياها وعَبَّرَت له عن مخاوفها ، وطلبت منه أن ينتبه لما يدور حوله ، ويأخذ لنفسه الحيطة والحذر ، فنذر الرجلُ على نفسه أن يذبح كبشين كبيرين من الضأن لوجه الله تعالى ، عسى أن ينقذه ويكتب له السلامة مما يحذره.
وفي مساء ذلك اليوم ذبح رأسين كبيرين من الضأن ، ودعا أقاربه والناس المجاورين له ، وقدم لهم عشاءً دسماً ، ووزَّعَ باقي اللحم حتى لم يبقَ منه إلا ساقاً واحدة ، وكان صاحب البيت لم يذق طعم الأكل ولا اللحم ، بسبب القلق الذي يساوره ويملأ نفسه ، والهموم التي تنغّص عليه عيشه وتقضّ مضجعه ، فهو وإن كان يبتسم ويبشّ في وجوه الحاضرين ، إلا أنه كان يعيش في دوامة من القلق والخوف من المجهول، ثم لَفَّ الرجلُ الساقَ في رغيفٍ من الخبز ورفعها نحو فمه ليأكل منها ، ولكنه تذكّر عجوزاً من جيرانه لا تستطيع القدوم بسبب ضعفها وهرمها ، فلام نفسه وقال: لقد نسيت تلك العجوز وستكون الساق من نصيبها ، فذهب إليها بنفسه وقدّم لها تلك الساق واعتذر لها لأنه لم يبقَ عنده شيء من اللحم غير هذه القطعة .
سُرَّت المرأةُ العجوز بذلك وأكلت اللحم ورمت عظمة الساق، وفي ساعات الليل جاءت حيّةٌ تدبّ على رائحة اللحم والزَّفَر ، وأخذت تُقَضْقِضُ ما تبقى من الدهنيات وبقايا اللحم عن تلك العظمة ، فدخل شَنْكَل عظم الساق في حلقها ولم تستطع الحيّة التخلّص منه ، فأخذت ترفع رأسها وتخبط العظمة على الأرض وتجرّ نفسها إلى الوراء وتزحف محاولة تخليص نفسها ، ولكنها عبثاً حاولت ذلك ، فلم تُجْدِ محاولاتها شيئاً ولم تستطع تخليص نفسها .
وفي ساعات الصباح الباكر سمع أبناء الرجل المذكور حركة وخَبْطاً وراء بيتهم فأخبروا أباهم بذلك، وعندما خرج ليستجلي حقيقة الأمر وجد الحيّة على تلك الحال وقد التصقت عظمة الساق في فكّها وأوصلها زحفها إلى بيته، فقتلها وحمد الله على

---
(٢) الترمذي وابن حبان

خلاصه ونجاته منها ، وأخبر أهله بالحادثة فتحدث الناس بالقصة زمناً ، وانتشر خبرها في كلّ مكان ، وهم يرددون المثل القائل : (كثرة اللُّقَم تطرد النِّقَم) أي كثرة التصدق بالطعام تدفع عنك البلايا..!

وهذه امرأة أخرى سافر ولدها فقعدت يوماً لتأكل وليس أمامها إلا لقمة إدام وقطعة خبز، فجاء سائل فمنعت عن فمها وأعطته وباتت جائعة، فلما جاء الولد من سفره جعل يحدثها بما رأى ..قال: ومن أعجب ما مر بي أنه لحقني أسد في الطريق، وكنت وحدي فهربت منه، فوثب علي وما شعرت إلا وقد صرت في فمه، وإذا برجل عليه ثياب بيض يظهر أمامي فيخلصني منه ويقول: "لقمة بلقمة"، ولم أفهم مراده..! فسألته عن وقت هذا الحادث وإذا هو في اليوم الذي تصدقت فيه على الفقير، نزعت اللقمة من فمها لتتصدق بها فنزع الله ولدها من فم الأسد.!

طالعت مقالاً للكاتبة السعودية (فاطمة التميمي) وهي تنتقد بمنطق الإيمان تلك الأصوات التي علت في بلادها للتحريض على تحجيم العمل الخيري وكبت منافذه والقضاء على مؤسساته..وقارنت الكاتبة بين ذلك التاريخ الحافل للمملكة العربية السعودية في عملها الإنساني ومساعدة الشعوب المنكوبة، وبين ما حل بها حينما تجاوبت مع هذه الهجمة العالمية على العمل الخيري الإسلامي فقالت: (في سنوات مضت كان العمل الخيري شامة مشرقة في جبين هذا البلد المعطاء ، وكان الناس يتنافسون في البذل والإنفاق ، والمؤسسات الخيرية تتسابق في بذل المعروف في شرق العالم وغربه، في أدغال أفريقيا وجنوب شرق آسيا وتمتد أغصانها لتصل إلى آسيا الوسطى وأوروبا الشرقية وأمريكا الجنوبية .

وكانت الأكف البائسة تحوطنا بالدعاء والثناء ، وتبتهل إلى الله – عز وجل – بأن يكف عنا الشرور والمصائب، كانت الصورة الذهنية التي تملأ الآفاق .. كل الآفاق .. أن هذا البلد هو بلد العطاء والمحبة والنصرة.. من الطفل الصغير الذي كان يقتطع من مصروفه اليومي لنصرة المستضعفين ، ومرورا بشتى طبقات المجتمع شيبا وشبابا ، رجالا ونساء .

ثم .. ماذا بعد ؟!فاجأتنا سنون عجاف كبلت فيها الأيدي عن العطاء تجفيف المنابع ، وأصبح رجال العمل الخيري ورواده متهمون بالإرهاب ، ثم ثار بعض الصحفيين وأهل الأهواء عليهم ، وراحوا يرددون التهم الغربية بدون وعي أو عقل.. ونجح الغرب في عزلنا عن إخواننا .. وقطعت أجنحة العمل الخيري!

ففاجأتنا زلازل العيص وحرب الجنوب و كارثة سيول جدة .. وبدأنا نسمع بنزوح عوائلنا ، وبمخيمات الإيواء والمنكوبين ، ونرى جموع المتضررين والملهوفين .. ولعل من أسباب هذه البلايا انقطاع دعاء المستضعفين الذي كان يحفظنا بحفظ الله إن العمل الخيري سر من أسرار النعيم الذي نتفيأ ظلاله ونتمتع بخيراته.)[1]

ويؤثرون على أنفسهم

قرأت يوما عن الفنان الفرنسي (موليير) الذي تفانى في موهبته واستنفذ في سبيل فنه قواه وصحته وسعادته الشخصية،كان ذلك حاله حينما بلغ الواحدة والخمسين من عمره، وفي يوم من الأيام وقد أحس بتعب شديد حاولت زوجته وأصحابه أن يمنعوه

---

[1] صحيفة المدينة – من مقال لفاطمة التميمي بتاريخ ٢٠٠٩/١٢/٢٥م بتصرف

من التمثيل في هذه الليلة وطلبوا منه أن يؤجل عرض مسرحيته (مريض الوهم) بعض الأيام حتى يتعافى مما به من ألم ومرض ، ولكن موليير رفض أن يؤجل العمل ليس حباً في التمثيل أو ارضاء لدافع الموهبة، ولكن إحساسه بالمسؤولية وحده هو الذي دفعه للتمثيل فقد قال لزوجه : كيف تريدون مني أن أتوقف؟ هناك خمسين فردا في فرقتي المسرحية يأخذون أجرهم يوما بيوم من عروضنا الفنية ، ولو توقفت عن العمل فلن يجدوا طعامهم ولا طعام أولادهم ، فماذا يفعل هؤلاء إذا توقفنا عن التمثيل ؟ إنني سوف ألوم نفسي لوما شديدا على أنني أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا ما دام في طاقتي أن أقف على خشبة المسرح، وأصر (موليير) على ان يذهب للمسرح في مساء السابع عشر من فبراير ١٦٧٣ وأدى دوره، وفي نهاية المسرحية شعر بالألم الحاد فتماسك ، وأنهى العرض المسرحي بأكمله ، ولكنه سقط فوق خشبة المسرح وقد أصابته نوبة سعال عنيف ، فنقلوه إلى منزله وتبين أنه أصيب بانفجار في أحد الشرايين فمات بعد ساعات من الألم الشديد.!

فأي إنسانية كان يغط فيها صاحب هذا القلب العظيم، الذي لن تغفر له نفسه لو أن من حوله لم يجدوا قوتهم وقوت أبنائهم في يوم واحد..لقد آثرهم على نفسه وعلى راحته وعافيته وقاوم عناءه وتعبه من أجلهم ..وهو إيثار عظيم.. وإن شئت فقل رجولة ومروءة وشهامة في أسمى معانيها ومثلها ..وإذا تحدثنا عن هذا الميدان فإن سيرتنا وتاريخ سلفنا العظيم قد بلغ فيه القدح المعلى..!

ما زلنا في دوحة تراثنا العظيم وفي صحبة الأسلاف العظام نعاين ونشاهد بأعيننا ما قدموه من مثل باهرة تملأنا فخراً واعتزازاً ؛ لانتسابنا لمن علم الدنيا معنى الحضارة ومعالم الرقي وصور الإنسانية حينما كان العالم يرزح تحت نير الهمجية والطمع والقسوة والعدوان..وفي الوقت الذي يتحرج فيه البعض من انتمائه ، تأتي صفحاتنا بما يرفع الرأس تيهاً وتباهيا ، فتحكي وتروي سيرة أناس قهروا الدنيا يوم أن قهروا أنفسهم فطهروها من براثن الأنانية وأوزار الأثرة..!

عن أبي هريرة ﷺ: (أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلَّا الماء، فقال رسول الله ﷺ: مَن يضمُّ- أو يضيف- هذا؟ فقال رجل مِن الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلَّا قوت صبياني، فقال: هيِّئي طعامك، وأصبحي سراجك ، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيَّأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثمَّ قامت كأنَّها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنَّهما يأكلان، فباتا طاويين ، فلمَّا أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ضحك الله اللَّيلة- أو عجب مِن فعالكما-، فأنزل الله:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(الحشر:٩)

وحينما أقبل المهاجرون إلى المدينة لا يملكون مِن أمر الدُّنْيا شيئًا، تركوا أموالهم وما يملكون خلف ظهورهم، وأقبلوا على ما عند الله عزَّ وجلَّ يرجون رحمته ويخافون عذابه..استقبلهم الأنصار الذين تبوَّؤوا الدَّار، وأكرموهم أيَّما إكرام، ولم يبخلوا عليهم بشيء مِن حطام الدُّنْيا...في صورة يعجز عن وصفها اللِّسان والبيان..!

- فعن أنس بن مالك ﷺ قال: (لما قدم المهاجرون المدينة نزلوا على الأنصار في دورهم، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم نزلنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أبذل في كثير منهم، لقد أشركونا في المهنأ وكفونا المؤنة، ولقد خشينا أن يكونوا ذهبوا بالأجر كلِّه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلَّا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم به عليهم)

- ولما قدم (عبد الرَّحمن بن عوف) إلى المدينة آخى النَّبيُّ ﷺ بينه وبين (سعد بن الرَّبيع الأنصاريِّ)، وعند الأنصاريِّ امرأتان، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلُّوني على السُّوق..)

يالله إننا نعهد الايثار في المال و الأكل والشراب، أما أن يكون في الزوجة ..فهذه جديدة لا تكون إلا من أصحاب محمد ﷺ الذين أعدهم ليكونوا قادة الدنيا وأساتذة الفضيلة..! بل كان ما هو أبلغ وأبلغ .. حينما جعلوا الإيثار في حق الحياة، وهو ما فعلوه في (اليرموك) حيث قال (عكرمة بن أبي جهل): (قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفرُّ منكم اليوم؟! ثمَّ نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه عمُّه (الحارث بن هشام)، و(ضرار بن الأزور) في أربعمائة مِن وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدَّام فسطاط (خالد) حتى أُثْبِتُوا جميعًا جراحًا، وقُتِل منهم خلقٌ، منهم ضرار بن الأزور رضي الله عنهم.. فلمَّا صرعوا مِن الجراح استسقوا ماء، فجيء إليهم بشربة ماء، فلمَّا قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فلما دُفِعَت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فتدافعوها كلُّهم - مِن واحد إلى واحد- حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم.)

وأخذ (عمر بن الخطَّاب) ﷺ أربعمائة دينار، فجعلها في صرَّة، ثمَّ قال للغلام: (اذهب بها إلى (أبي عبيدة بن الجرَّاح)، ثمَّ تلكَّأ ساعة في البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها، فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وصله الله ورحمه، ثمَّ قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السَّبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها، فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل، وقال: اذهب بهذا إلى (معاذ بن جبل)، وتلكَّأ في البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع، فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله. وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا. فاطَّلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا. ولم يبق في الخرقة إلَّا ديناران فنحا بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر، وقال: إنَّهم إخوة بعضهم مِن بعض)[١]

وقال عمر بن الخطاب لأخية زيد بن الخطاب يوم أحد: (أَقسمتُ عليك إلا لبستَ درعي، فلبسها ثُمَّ نزعها، فقال له عمر: مالك؟ قال: إني أريد بنفسي ما تُريد بنفسك)[٢]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (أُهدي لرجل من أصحاب النبي ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منَّا قال: فبعث إليه، فلم يزل يبعث به

---

(١) كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك
(٢) رواه ابن سعد والطبراني في الأوسط وإسناده حسن

الواحد إلي الآخر حتَّى تداولها سبعة أبيات، حتَّى رجعت إلى الأول، ونزلت: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) البيهقي في شعبه

و عن عائشة زوج النبي ﷺ: (أن مسكينًا سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه. قالت: أعطيه إياه. قال: ففعلت. قالت: فما أمسينا حتى أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ممن كان يُهدي لنا شاة وكفنها، فدعتني عائشة فقالت: كُلي من هذا، هذا خير من قرصك) الموطأ

وعن عطاء الخراساني كما في تاريخ دمشق : (أن امرأة أبي مسلم الخولاني -أحد كبار التابعين الزهاد- قالت: ليس لنا دقيق. فقال: هل عندكِ شيء؟ قالت: درهم بعنا به غزلاً، قال: ابغينيه وهاتي الجِرَاب، فدخل السوق فأتاه سائلٌ وألحَّ، فأعطاه الدرهم وملأ الجِرَاب نُشارة مع تراب، وأتي وقلبُه مرعوب منها، وذهب ففتحته، فإذا به دقيق حُوَّاري فعجنت وخبزت، فلما جاء ليلاً، وضعتْه، فقال: من أين هذا؟ فقالت: من الدَّقيق، فأكل وبكى)

وعلى درب الصحابة العظام كان رجال الأمة الأبرار..يدلون بدلوهم في دنيا الايثار والفداء وحب المسلمين.!

جاء في تهذيب الكمال: (جاء (فُضيل بن مرزوق) وكان من أئمة الهدى زُهدًا وفضلاً إلى (الحسن بن حيٍّ)، وكان لا يأتيه ولا يعلمه أنه ليس عنده إلا عند ضيق شديد فيخبره، فأتاه فأخبره أنه ليس عنده شيء، فقام الحسن فأخرج ستَّة دراهم، وأخبره أنه ليس عنده غيرها، فقال: سبحان الله ليس عندك غيرها وأنا آخذها؟! فأبى الحسن ابن حيٍّ إلا أن يأخذها كلها، وأبى (فضيل بن مرزوق) حتى ناصفه، فأخذ ثلاثة، وترك ثلاثة) رواه الترمذي

وذكر (عبد الله بن أحمد بن حنبل)، أن (أبا سعيد بن أبي حنيفة) المُؤدِّب قال له: (كنت آتي أباك (يعني أحمد بن حنبل) فرُبَّما أعطاني الشيء وقال: أعطيتك نصف ما عندنا؛ فجئت يومًا فأطلت القعود، فخرج ومعه أربعة أرغفة فقال: يا أبا سعيد، هذا نصف ما عندنا، فقلت: يا أبا عبد الله، هذه الأربعة الأرغفة أحبُّ إليَّ من أربعة آلاف من غيرك)

وعن يحيي بن هلال الورَّاق قال: (جئت إلى محمد ابن عبد الله بن نُمير -أحد أئمة الحديث الثقات- فشكوت إليه، فأخرج إليَّ أربعة دراهم أو خمسة دراهم، وقال: هذا نصف ما أملك، قال: وجئت مرَّةً إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل فأخرج إليَّ أربعة دراهم، وقال: هذه جميع ما أملك)

وروى الدينوري في (المجالسة وجواهر العلم) أن رجلاً (ظلَّ صائمًا في عام قحط، فابتُلي بسائل فقير عند فطره وقد أُتِي بقُرْصين له؛ فألقى إليه أحدهما، ثم قال: ما هذا بمُشْبِعه ولا هذا بمُشْبِعي، ولأن يشبعَ واحد خيرٌ من أن يجوع اثنان، فألقى إليه الآخر، فلما أن آوي إلى فراشه؛ أتاه آتٍ في منامة، فقال: سَلْ ما شئت، فقال: المغفرة، فقال: قد فعل الله بك ذلك؛ فسَلْ غير هذا. فقال: أسأل أن يُغاث الناس)

كما كان حس الإيثار قويا متنامياً في نفوس الأولين كبارا وصغارا، ويمارسونه في حياتهم لا مع الإنسان فقط وإنما مع الحيوان الأعجم.!

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم، وفيه غلام أسود يعمل فيه، إذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط كلبٌ ودنا مِن الغلام، فرمى إليه الغلام بقرصٍ فأكله، ثمَّ رمى إليه الثَّاني والثَّالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتك كلَّ يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلِمَ آثرت به هذا الكلب؟! قال: ما هي بأرض كلاب، إنَّه جاء مِن مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أشبع وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟! قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: أُلام على السَّخاء! إنَّ هذا الغلام لأسخى منِّي. فاشترى الحائط والغلام وما فيه مِن الآلات، فأعتق الغلام ووهبه منه"[٣]

- ورُوِي أنَّ (مسروقًا) أدان دينًا ثقيلًا، وكان على أخيه (خيثمة) دين، قال: فذهب مسروق فقضى دين خيثمة، وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم.!

لم يكن الإيثار طبعا جبلت عليه النفوس أو توارثوه أبناء عن آباء، وإنما كان خلقاً طبع به ديننا كل من دان به..وحينما أقام أسلافنا هذا الخلق في حياتهم ، جاء منهم ما يشبه الاساطير في فناء الذات وحب الآخرين..

حينما يقسو القلب !

قال مالك بن دينار: (ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله عزَّ وجلَّ على قوم إلا نزع منهم الرحمة)

وقال: (أربع من علم الشقاوة: قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا)

وقال ابن القيم: (ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله)

وقال سهل بن عبدالله: (كل عقوبة طهارة، إلا عقوبة القلب فإنها قسوة)

كان النور يكسو جبينه ويتلألأ الإشراق في وجهه..وملامحه الربانية تشع سكينة ووقاراً، وكنا حوله نجلس مأخوذين مبهورين، ثم ينساب حديثه العذب الذي يمتع به نفوسنا المشتاقة، وصدورنا الملتاعة..وفجأة يخرج العالم الرباني عن سمته وهدوئه، فينفعل في حديثه، وتحمر وجنتيه ويزمجر وجهه، وتثور كلماته، ويضرب بقبضته الشديدة على منضدته ، ويصيح بأعلى صوته ويقول :

(إن الإنسان بدون دين وبدون خلق هو أقذر وحش على هذه الأرض)

ذلكم هو شيخنا العلامة الكبير فضيلة الشيخ (حسن أيوب) رحمه الله وجعل الجنة مثواه..وكم في الحياة من نماذج صدّقت مقولة الشيخ الغاضب، بل كم من أناس حسبوا على البشر، وما كانوا عليهم إلا لعنة وجحيماً.

وكأنما رضعوا من لبان الوحوش المفترسة، أو قدت قلوبهم القاسية من الصخور الصماء..ولكن الحيوان لا يفعل بالحيوان ما يفعلونه هم بالإنسان، وكذلك الحجارة حسب ما أخبر ربنا سبحانه فمنها:

(لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة:٧٤)

---

[٣] إحياء علوم الدين